مجموعة
قصصية
الزيتونيات
حكايات البحث عمَّا بقي من الأحلام
د. عادل أحمد الزايد
دار دوِّن

الزيتونيَّات

د. عادل أحمد الزايد: الزيتونيَّات، قصص

الطبعة العربية الأولى: سبتمبر ٢٠٢٣

رقم الإيداع: ١٩٧١٩/٢٠٢٣- الترقيم الدولي:٢-٣٧٥-٨٠٦-٩٧٧-٩٧٨

جَميـعُ حُـقـــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محْـــفُوظةٌ للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

رسوم داخلية: هيا النجار

إن الآراء الـــواردة فـــي هـــذا الكتـــاب
لا تُعبـــر عـــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة
وإنمـــا تعبـــر عـــن رؤيـــة الكـــاتب.
© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

د. عادل أحمد الزايد

" الزَّيتونيَّات "

مجموعة قصصية

إهداء

إلى روح أمي الطاهرة
كتبت إليكِ من عَتب رسالة عاشق تعِب
رسائلُه منازله يُعمِّرها بلا سبب

يعود إليك عند الليل حين تأوَّه القصب
يُسائِل كيف حال الدار كيف مطارح اللعِب
ويمسح دمعةً سبقته رغم تمتُّع الهدب

رسائله منازله يُعمِّرها بلا سبب

أنا أعطيت هذا الليل أسمائي وهاجر بي
جعلت نجومه كتبًا رسمتك نجمة الكتب

زيتونـة نـوحٍ

"إن استطعتَ ألَّا تخالط الناس فافعل،

وليكنْ همُّك مرمَّة جهازك،

واحذر إتيان هؤلاء الأمراء،

وارغب إلى الله في حوائجك،

وافزع إليه فيما يَنُوبك،

وعليك بالاستغناء عن جميع الناس،

وارفع حوائجك إلى مَن لا تَعْظم عنده الحوائج".

سفيان الثوري

كانت العَربة ذات الدَّفع الرباعي ترتَجُّ فيَّ ارتجاجًا قويًّا، عاكسةً وُعورَةَ الطَّريق الجبليِّ الذي تسير عليه، لا أعلم لماذا أنا على هذا الطريق؟! ولا أدري ما منتهاه؟! بل ما يجعل الوضع أكثر تعقيدًا هو أني لا أعرف حقيقة نقطة النهاية التي يجب أن أَبْلُغها، فلست أنا مَن حددها، أنا أقود سيارتي على هذا الطريق الوَعْر دون هدف محدَّد أعرفه.

عندما أفَقْت صباحًا اتجهت لصالة الطعام في الفندق الصَّغير، الذي كنت أسكن فيه، أخبرني صاحب الفندق -والذي هو أيضًا يقدِّم الإفطار للنزلاء- بأن الليالي الثلاث التي حجزْتُها مسبقًا قد انقضت، وإن كنتُ أحتاج للبقاء مدَّةً أطول فلا بدَّ من تمديد الحجز. أخبرته بأنِّي لا أنوي التَّمديد، وسألته إن كانت عنده أيُّ اقتراحات لقضاء بعض الأيام الأخرى، سألني باسمًا: هل أريد أن أذهب لجهة سياحيَّة أم أريد الهروب؟!

على الرَّغم من أنَّ سؤاله فاجأني، لكنَّني لم أتردَّد في إجابته: "حقيقةً أريد الهروب".

ابتسم مجدَّدًا وقال: "أُدير هذا النُّزل منذ ٣٥ عامًا، واعتدت أنْ أقرأ في أعين النزلاء حاجاتهم".

ثم طلب منِّي أن أفتح له تطبيق خرائط لتحديد الطرقات على هاتفي الـذَّكي؛ فهو يعلم بأنِّي قد استأجرت سيارة منذ وصولي. ضغطَ على شاشة الهاتف محدِّدًا جهةً معيَّنة، وأخبرني بأنِّي سأجد هناك أفضل مكان للابتعاد عن

العالم أجمع، أعاد لي هاتفي وابتسم ابتسامة عريضة، حملتْ معها أمنياته الصادقة لي بهروبٍ آمن وجميل.

التقطْتُ حاجياتي البسيطة من الغرفة التي قضيت فيها لياليَّ الثلاث الماضية، وألقيتها في حقيبتي دون أدنى ترتيب، وحملتها خارجًا من الفندق، لم أنسَ بالطبع أن أوَدِّع صاحب الفندق قبل توجُّهي لسيارتي المؤجَّرة، وهو لم ينْسَ أن يُهديني ابتسامةً جديدة كي يودِّعني بها.

انطلقْتُ متتبِّعًا الإرشادات الصوتيَّة التي تأتيني من جهازي النَّقَّال، قادتني الاتِّجاهات عبر شوارع أثينا القديمة والضيِّقة، حيث كان النُّزل الذي أسكن فيه، حتى أخذتني إلى الطريق السَّريع، ومن هناك انحدرتْ بي الاتجاهات إلى هذا الطريق الجبلي الوَعْر، ومع وُعورة الطريق بدأتِ العربة بالارتجاج، ربما كنت أحتاج لهذه الاهتزازات حتى أتنبَّه لِما أفعل؛ فوُعورة الطريق واهتزاز السيارة جعلاني أسأل نفسي: إلى أين أنا ذاهب؟!

فأنا لم أسأل صاحب الفندق عن المكان الذي حدَّده لي، بل لم أستفسر إنْ كان هناك مكان أستطيع أن أسكن فيه، كلُّ ما فعلته -عندما أعاد لي هاتفي- هو أنَّني نظرت إلى الوقت الذي يمكن أن تستغرقه الرحلة... عمومًا لم يَعُدْ هناك أيُّ فائدة من تساؤلاتي هذه؛ فوقتُ الرحلة الذي أشارت إليه الخارطة لحظةَ تحرُّكي من الفندق كان ساعتين ونصف الساعة، والآن تشير الخارطة إلى أنَّ المتبقي هو ٤٥ دقيقة، فما عاد يُجدي الآن أنْ أسأل عن أيِّ شيء، بل إنَّه لا يوجد هناك مَن أسأله؛ فالطريق خالٍ تمامًا، فلم يَعُدْ لي إلا أن أتَّبِعَ إرشادات الخارطة التي تأتيني من خلال هذا الصوت الإلكتروني الرَّتيب، آخذةً إيايَ إلى تلك النقطة الحمراء التي تظهر على شاشة جهازي المحمول.

هكذا تَحوَّل كلُّ شيءٍ بالنسبة لي إلى مجرَّد نقطةٍ حمراء على تطبيقٍ في جهازي الذَّكي؛ نقطة حدَّدها لي شخصٌ غريبٌ ليس لي به سابق معرفة، يكفيني أنَّه حدَّدها وهو مبتسِم، وهل الابتسامة تكفي؟ أثَّرَ كثيرون في اتِّجاهات حياتي في السابق، والعجيب أنَّهم جميعًا كانوا يبتسِمون وهم يقهرونني على أخذِ هذا الاتجاه أو ذاك، عمومًا هناك شعورٌ مختلِفٌ لابتسامة صاحب النُّزل، فلا أستطيع أن أكون متأكِّدًا، لكنِّي شعرت بصدقٍ ما، أو دَعْني أقول: شعرت بإنسانيَّةٍ ما في ابتسامته، كأنَّها كانت خالية من أيِّ غرائز

حيوانيَّة؛ غرائز نابعة من قوانين الغاب، البقاء للأقوى، ومن أجل تحقيق البقاء لا مانع من القليل من الخديعة. أوه! إلى أين تأخذني أفكاري؟ فكلُّ هذا لا يهمُّ الآن؛ فلم يَعُدْ لي إلا أنْ أتَّبِع هذا المسار الذي يقودني إلى تلك النقطة الحمراء.

جئت إلى اليونان منذ أربعة أيَّام، لا لشيء إلَّا لأنَّني كنت أملك سِمة الدُّخول لأوروبا منذ رحلة سابقة، ولأنَّ سعر التَّذكرة إلى اليونان كان مناسِبًا بالنِّسبة لي، كان لا بدَّ من السفر، أو بالأحرى كان لا بدَّ من الهرب؛ لا أهرب من شيءٍ قانونيٍّ، ولا من مطالَبات ماديَّة، ولا شيء من هذا، كنت فقط أريد أنْ أهربَ من الحياة، من الأحداث التي تحدث من حولي، من أخلاق الناس، ومن ابتساماتهم البلاستيكيَّة التي تعكس غرائز حيوانيَّة، من العمل، من كلِّ شيء، لا أدري ربَّما كنت أهرب حتى من نفسي، من هذا الإنسان الذي أصبحت عليه دون أن أدري؛ فأنا جئت إلى هنا دون خطَّة. إذًا ليس عجبًا أن أكون هنا في هذا الطريق الوَعْر، فالرِّحلة كلُّها كانت وعرةً، فما يضيرني هذا الطريق الجبلي، ولا يهم أن يكون هدفي الآن هو مجرد نقطة حمراء صغيرة على شاشة جهاز محمول حدَّدها شخصٌ غريب.

الخارطة تشير إلى أنَّ المتبقِّي من المسافة ١٠ كيلومترات، والوقت المقدَّر لبلوغ النُّقطة الحمراء هو نصف ساعة، ربما أحتاج لأكثر من نصف ساعة؛ فأنا أكاد لا أضغط على دوَّاسة الوقود، السيارة في معظم الوقت تتحرَّك بدفع الماكينة فقط؛ فالطَّريق وعرٌ جدًّا، والصخور ناتئة، المكان خالٍ من أيِّ إمكانيَّة للمساعدة عند حدوث أيِّ طارئ، والسيارة مؤجَّرة... كلُّ هذه العوامل مجتمِعةً جعلتني أكون حذِرًا، ولكن هل يفيد الحذر؟!

كنت حذِرًا في كلِّ معاملاتي مع الناس، فمنذ أيَّام دراستي الجامعيَّة وأنا أختار أصدقائي بحرصٍ شديد، وعلى الرَّغم من هذا الحرص في الاختيار إلا أنَّني كنت لا أُحدِّث أحدًا منهم في شؤوني الخاصة، كنت أكتفي بأنْ أستمِع لهم، ولكن هل عافاني هذا الحرص وذلك الصمتُ من خذلان الأصدقاء؟ بل حتَّى مَن كان أقربهم مني مكانةً لم أنجُ من خِذلانه، أكره النفاق والتملُّق وأرفضهما؛ أرفض أن أنافق وأن أتملَّق لأيِّ شخص كائنًا من كان، كما أرفض أن ينافقني أو يتملَّق لي أحد، فهل هذا الرَّفض أمَّنَني من مكائد المنافقين

والمتملِّقين؟ العجيب أنَّه رغم كلِّ ما عُرِفتُ به من ذكاء وفطنة، إلا أنَّني لم أستطِع ولو لمرَّة واحدة أنْ أقرأ سوء النوايا خلف تلك الأقنعة المبتسمة، هل كان ذلك سذاجةً مني؟! هل كانت قلة خبرة؟! لا أدري، كلُّ ما أدركه الآن هو أنَّني قرَّرت أن أتركَ كلَّ هذا خلفي وأهرب، وها أنا الآن أجد كلَّ حياتي تمحورت حول تلك النقطة الحمراء الظاهرة على شاشة جهازي المحمول.

متبقٍّ عشرُ دقائق لبلوغ النقطة الحمراء، التفافات الطريق تحجب عني وضوح الرؤية؛ فأنا لا أكاد أستوضح إلا أمتارًا قليلة من الطريق الذي أمامي، وعلى الرَّغم من هذا كنت هادئًا جدًّا، لا شعور بالقلق أو الخوف.

قبل خمسة أيام كنت مستلقيًا على فِراشي في منزلنا، لا أدري ماذا أفعل! ففتحت دُرج الطاولة التي بقرب فراشي، فوجدت جواز السفر الخاص بي، استخرجته وقلَّبت الصفحات، فإذا بِسِمةِ دخول أوروبا أمامي، تأكدت من تاريخ صلاحيتها، أمسكت بهاتفي النقال، بحثتُ عن تذكرة سفر، وجدت رحلةً لليونان، انتظرتُ إلى الصباح وذهبت للعمل، تقدَّمت بطلب إجازة بكامل رصيد إجازاتي المتاح، مساءً كنت في الطائرة، تواصلت مع مكتب حجوزات الفنادق في مطار أثينا، واقترح عليَّ الفندقَ الذي نزلت به خلال الثلاث الليالي الماضية، وها أنا الآن أتَّبع إرشادات الطريق في اتجاه النقطة الحمراء.

في اللحظة التي أعلَنَ فيها الصوت الإلكتروني بأنَّني وصلت لجهتي المحدَّدة بالنقطة الحمراء، ظهر أمامي كوخٌ خشبيٌّ، وأمامه شجرة ضخمة. أوقفت السيارة، وما إن فتحتُ باب السيارة، وقبل أن تطأ قدماي الأرض، سمعت صوتًا يُرحِّب بي بلغة إنجليزيَّة: "مرحبًا بك، وأهلًا وسهلًا". أدهشني الصوت؛ فأنا لم ألحَظْ وجود أحد! فالتفتُّ جهة الشجرة، حيث أتاني الصوت، فإذا برجُلٍ يجلس على كرسيٍّ خشبي وأمامه طاولة عليها عِدَّةُ صناعة القهوة، التي يجب أن تحرص على أن تسمِّيها القهوة اليونانية؛ فلا يقبل أحدٌ هنا أن تسمِّيها قهوة تركية. أجبتُه مسرعًا: "أهلًا وسهلًا"، ولكن يبدو أنَّ لَكْنتي العربية طغت على نطقي بالإنجليزية؛ لأنَّه سرعان ما أجابني بلهجة مصرية واضحة:

- أنت عربي؟

- أجل، نعم أنا عربي، وهل أنت مصريٌّ؟

- لستُ تمامًا، إنَّما أنا يوناني سكندري؛ فقد وُلدت بالإسكندرية، وخرجنا منها بعد العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦، وكان عمري آنذاك ١٠ سنوات، وقبل أن تسألني عن سِرِّ إنجليزيَّتي، فقد عشتُ بعد ذلك ما يزيد على العشرين عامًا في الولايات المتحدة، ثم عدتُ إلى اليونان واشتريتُ هذه الأرض و"زيتونة نوح" هذه، وأعيش هنا منذ ما يزيد على ٣٠ عامًا.

- زيتونة نوح؟!

- هل ستبقى هكذا متوقِّفًا عند سيارتك؟ ألا تريد أن تجلس؟

- أوه بالطَّبع، بل لا أمانع فنجان قهوة كذلك، إن كان هذا ممكِنًا؟

- بالطَّبع، فهذا عملي؛ فعملُ القهوة وتجهيز وجبتَي الغداء والعَشاء، وأحيانًا تأجير إحدى غرف هذا الكوخ الخشبي، هي الطريقة التي أكسب بها دَخْلي، تفضَّل اجلس، نتحدَّث ونُعِدُّ القهوة.

- والآن أَخبِرْني ما موضوع زيتونة نوح؟

- ألستَ أنت هنا من أجل زيارة هذه الزيتونة؟

- حقيقةً، أنا هنا لأنَّ صاحب الفندق الذي كنت أسكن فيه حدَّد لي هذا الموقع على الخريطة الإلكترونيَّة، فكنت أتَّبع إرشادات الخريطة التي قادتني إلى هنا، ولا عِلم لي بالزيتونة إطلاقًا.

- أنت محظوظ، فشهر مايو دائمًا ما يكون هادئًا، فلا يوجد الكثير من الزوَّار، وتقلُّ الحركة على هذه الأماكن السياحيَّة، خاصة بعد احتفالات وعطلة أعياد الإيستر، أمَّا في معظم الأوقات فمئات السيَّاح يقصدون هذه الزيتونة يوميًّا بالزيارة؛ فهي أقدم شجرة زيتون على وجه الأرض، فعمرها يُقدَّر بسبعة آلاف عام، ولهذا يعتقد بأنَّها الزيتونة التي التقطت منها الحمامة الأوراق التي بها استدلَّ نوح بأنَّ الأرض بدأت تبتلع ماءها، فهي شجرة مبارَكة، والسيَّاح الذين يأتون لزيارتها على أنواع؛ فمنهم مَن يأتي للتَّبارُك، ومنهم مَن يأتي للفضول، ومنهم مَن يأتي بلا هدف إطلاقًا، يأتي لأنه وجد نفسه هنا.

- زيتونة نوح؟! للتَّبارُك؟! سبعة آلاف سنة؟!

- نعم، فطالما هي الزيتونة التي اختارها الله لحمامة نبيِّه نوح لتلتقط منها ورقات السلام، فهي لا بدَّ أن تكون مباركة.

- وكيف تكون متأكِّدًا بأنَّها زيتونة نوح؟!

- مِن عمرها، فعمرها ٧ آلاف سنة.

- وكيف تعرف أنَّ عمرها ٧ آلاف؟!

- توجد ورقة من مجموعة بحثيَّة تؤكد ذلك.

- ولنسلِّم بصِدق هذه الورقة، فكيف نعرف بأنَّ ما يفصلنا عن نوح عليه السلام هو ٧ آلاف سنة؟

- وكم يفصلنا عن نوح إذًا؟

- لا أعلم، ربما أكثر من ٧ آلاف سنة، وربما أقلُّ.

- إذًا، وحتى نعرف فسبعة آلاف سنة الآن تكفيني للتأكُّد بأنَّ هذه الشجرة هي شجرة نبيِّ الله نوح.

- بالمناسبة أَذكر أنَّه منذ سنوات قرأتُ مقالًا بأنَّ هناك شجرة زيتون في صورٍ بلبنان، يُعتقَد بأنَّها أقدم شجرة زيتون على وجه الأرض، وأنه يُظَنُّ بأنَّها ربما تكون شجرة نوح..

- صحيح، وهناك شجرة في مدينة بورصة في تركيا يُعتقَد بأنَّها زيتونة نوح، وثالثة في ألبانيا يُعتقَد بأنَّها زيتونة نوح، ولو بحثنا أكثر سنجد زيتونات لنوح أكثر وأكثر..

يقاطع حديثنا صوت سيارة تقترب، صوت السيارة المقتربة يُشاغِل صاحب زيتونة نوح عن إكمال حواره معي، تقترب السيارة أكثر، تتوقف قرب سيارتي، يترجل منها رجل، يتوجه بالتحية للرجل العجوز متجاهلًا إياي تمامًا، يدور بينهما حديث، لم أكن أحتاج أن أفهم اليونانية حتى أستشفَّ محتوى الحوار الدائر بينهما.

يمتلأ وجه صاحب زيتونة نوح بابتسامة عريضة، ينهض من على كرسيه الجالس عليه، يتجه في اتجاه الرجل القادم ويدعوه لكوخه الخشبي، كان لا بد لي من التدخل حتى أُذَكره بوجودي، فنظرت له وقلت بصوت مرتفع:

- مُشترٍ جديد للوهم؟

- لكن، أنا لا أبيع الوهم إطلاقًا، أنا أبيع القهوة والطعام فقط..

- لكن الناس تأتي هنا من أجل الوهم الذي اسمه "زيتونة نوح"، فيشترون

منك القهوة والطعام..

- وهل أتيت أنت هنا من أجل زيتونة نوح؟

- لا، أنا جئت متتبِّعًا تلك النقطة الحمراء التي كانت ظاهرة على شاشة هاتفي الذكيِّ.

- ليست فقط الهواتف هي الذكيَّة، حتى الناس أذكياء، وهم أيضًا تظهر لهم نقاط حمراء، فيتَّبعونها رغبةً في الأمل.

- الأمل؟!

- نعم، فنبيُّ الله نوح كان يُطلق حماماته يومًا بعد يوم، آملًا أن تعود له حمامة بإشارة تدلُّ على الأمل، وقربِ الخلاص، فعادت له يومًا حمامة بوَرَقاتٍ من شجرة زيتون، ربما كانت هذه الشجرة، وربما كانت شجرة صورٍ، وربما شجرة بورصة، بل وربما أيضًا تكون قصة الزيتونة؛ كلُّها مجرد أسطورة صنعها خيال الناس الباحث عن نقطة الأمل الحمراء، وهكذا فكلُّ من يأتي إلى هنا يعلم بأنَّ هذه الزيتونة هي ليست أكثر من شجرة مُعمِّرة، لكن هذا الشعور بأنَّ هذا العالم مستمرٌّ في الحياة منذ أكثر من سبعة آلاف سنة رغمًا عن كلِّ شيء هو ما يأتي بهم، فنُقَط الأمل هي التي تأتي بهم إلى هنا، وربما يأتون من أجلها مرَّاتٍ عديدة.

- ليت عندي حمامة الآن، فأُطلِقها لتلتقط لي وريقات من هذه الشجرة فتعطيني الأمل.

- وما حاجتك للحمامة؟ مُدَّ يدك والتقِطْ ما شئتَ من أوراقها؛ فأنا لا أحاسِب على البحث عن الأمل، أنا فقط أحاسب على القهوة والطعام والسَّكن.

زيتونةُ جدَّتي

شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك

هي سيِّدة السُّفوح المحتشِمة

بظِلِّها تغطِّي ساقها

ولا تخلع أوراقها أمام عاصفة

تقف كأنَّها جالسة، وتجلس كأنَّها واقفة

محمود درويش

هنا، وفي منتصف حديقة منزلنا، تقف شجرة الزيتون التي تعود ذكرياتها لزمن طفولتي المبكِّرة، بل هي تقف هكذا شامخة حتى قبل مولِدي. سمعت ذات مرَّة بأن جدي هو الذي زرعها في هذا المكان عندما انتقلوا لهذا المنزل، وجَدِّي توفِيَ قبل مولدي، وسمعت في أكثر مِن مرَّة مِن جدتي أنَّ جدي اشترى هذا البيت، وكانت شجرة الزيتون هذه مزروعة في مكانها هذا.

أيًّا كانت حقيقة هذه الزيتونة التي تقف في منتصف حديقة منزلنا، فقَطْعًا عمرها أكثر من سبعين سنة؛ فأنا اليوم أبلغ الستين، وهي ربما تكبرني بعشرة أو عشرين عامًا. للأسَفِ لم أهتمَّ كثيرًا في صغري أن أستفهم عن تاريخ الأشياء التي حولي، واليوم وبعد أنْ رحَلَ كلُّ من كانوا يحتفظون بهذا التاريخ، أُسائِل نفسي عن ذكرى تلك الأشياء، فأُجهد ذاكرتي فأستدعي كلمةً من هنا وقصةً من هناك، وأجمعهم كما تُجمع قِطَع الأحجية؛ لوضع قصة ما أو صناعة تاريخ للأشياء من حولي.

ربَّما لا أعرف تاريخ شجرة الزيتون على وجه الدِّقَّة، لكنِّي أذكر تاريخ شجرة التين جيِّدًا، فوالدي كان يأخذنا أنا وأخي -الذي يكبرني- من المدرسة ظُهر كلِّ يوم، ونادرًا ما كُنَّا نخرج فلا نجده في سيارته ينتظرنا، فنتسابق أنا وأخي أيُّنا يصل أولًا، فيكون من حقِّه أن يجلس في المقعد الأمامي بجانب والدي، لا أذكر أنَّني سبقت أخي في أيِّ مرة، لكنَّ هذا لم يمنعني من المحاولة في كلِّ مرة، وربما هذه الحادثة اليوميَّة هي التي شكَّلت في شخصيتي صفة الإصرار والمثابرة. عمومًا، في يوم من تلك الأيام، خرجنا من المدرسة وتسابقنا أنا وأخي لسيارة أبي، وكما هي العادة سبقني للكرسي الأمامي، وقَنِعتُ -كما هي العادة أيضًا- بالجلوس في الكرسي الخلفي، لكن

المفاجأة في ذلك اليوم أنِّي وجدت ضيفًا آخر يشاركني ذلك المقعد! لم يكن ذلك الضيف إلا شجرة صغيرة عبارة عن فرع واحد يحمل أربع ورقات في قمَّته، وعرفت مِن والدي بأنَّها شجرة تين سوف نزرعها في حديقة منزلنا.

بالطَّبع حينها أصبح للمقعد الخلفي معنًى آخر، وهكذا تحوَّلت الخسارة إلى فوز، وأيضًا هذه الحادثة علَّمتني ألَّا أستعجِل في تحليل النتائج؛ فربَّما كان الفوز خسارة، ولعلَّ الخسارة كانت أكبر فوز تحقِّقه في حياتك، حاوَل أخي أن يقفز للمقعد الخلفي فمنعه أبي فَضًّا لأي اشتباك، وعندما فشلتْ محاولاته لاستجداء أبي للسَّماح له بالجلوس معي في الكرسي الخلفي، حاول مجتهِدًا مُقايضتي لتبادُل المواقع، لكنِّي لم أفوِّت الفرصة للاستمتاع بهذا الموقف النادر من الشُّعور بمتعة الانتصار.

أذكرُ ذلك الحدث بكامل تفاصيله حتى هذا اليوم، فلَمْ تُفلح الأعوام الـ٥٤ التي تَفصِلنا عن تلك الذكرى أن تُذهِب متعة الإحساس بالتفوُّق، ما زلت أبتسم كلَّما مرَّت بخاطري ذكريات ذلك اليوم، أذكُرُ -تحديدًا- بأنَّني كنتُ في الصَّفِّ الأول الابتدائي؛ أي كان عمري ستَّة أعوام، وأذكر بأنِّي في الفترات القليلة -التي تركني أخي دون توجيه الأوامر والتوجيهات في كيفيَّة حماية شجرة التين خلال رحلة السيارة- كنت أعيش فيها حالةً من الأحلام في كيف ستأخذني هذه الشجرة إلى عالم المال والشهرة؟

عندما عُدْنا إلى المنزل حملت شجرة التين بنفسي، وانطلقتُ بها راكضًا لوالدتي، طبعًا حدث هذا وسط صراخ أخي واعتراضاته الجديَّة على تصرُّفي الطفولي هذا، وغلَّف اعتراضه بحرصه على الشجرة، حاجبًا أيَّ إمكانية للاعتقاد بأنَّ دافع اعتراضه هو الغيرة، أظهرَت والدتي مشاعر الفرحة بالشجرة، فمنحتني هذه المظاهر التمثيليَّة التي أظهرَتْها أمي نشوةً إضافيَّة، لكنَّها تدخَّلت بهدوء وحكمة، وجعلتنا نحمل الشجرة سويًّا لنُقدِّمها لجدتي. هل علَّمتني هذه الحادثة أنَّ متعة المشارَكة في الانتصار أجمل؟ لا أظنُّ ذلك؛ فمتعة الانتصار الفردي أكبر.

بعد الغداء، اجتمعَت الأُسْرة في الحديقة في احتفاليَّة مرِحة كي نزرع شجرة التين، وأذكُر تمامًا كيف احتسَبَ أبي أمتارًا أربعة من خلال السير بطريقة خاصَّة، تتمثَّل بمَدِّ ساقَيْه بحركة متقَنة ومنضبطة لتفصِل هذه الأمتار

بين شجرة الزيتون الشامخة وغصن التين الذي أخذ مكانه في حديقة المنزل في ذلك اليوم الاحتفالي، وكان أبي يردِّد لجدتي وهو يقبِّل يدها بين لحظة وأخرى، وهو يزرع غصن التين: وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ [التِين: ١-٣]. لم أكُن أعي مقصد أبي في ذلك الوقت، ولم أدرك سبب تكراره لهذه الآيات. احتاج الأمر منِّي سنوات طويلة كي أدرك مرمى أبي، بأنَّ تجاوُرَ التين بالزيتون هو تحقيق لهذه الازدواجيَّة المباركة.

شجرة التين اليوم لم تَعُد غصنًا واحدًا، ولم تَعُد تحمل أوراقًا أربعة، بل هي تقف اليوم شامخة، وأغصانها تلامست مع أغصان الزيتونة، محقِّقين تداخُلًا قدسيًّا مهيبًا، إنَّها ثنائيَّة التين والزيتون. وهكذا وبعد سنواتٍ قليلة ملأت شجرة التين مكانتها قرب الزيتونة، ولا يكاد يفرِّق بينهما شيء في الشموخ والهيبة سوى أنَّ التِّينة تنزع غطاءها الأخضر في كلِّ شتاء، في حين أنَّ الزيتونة لا تعرف نزع أوراقها وتبقى دومًا متستِّرة بردائها الورقي متمايل الألوان بين الأخضر والفضِّي مهما تغيَّرت الفصول، وكأنَّها تحافظ على وقارها، رافضةً نزع ردائها.

لم تكُن تلك هي الاحتفاليَّة الزراعية الوحيدة في حديقة منزلنا، بل ما زلت أذكر أنَّه بعد عامٍ من تلك الذكرى أو ما يزيد قليلًا حدثت احتفالية أخرى؛ وذلك لزراعة شجرة مباركة ثالثة، حقًّا لم أحظَ هذه المرَّة بشرف مرافقتها لي في كرسي السيارة الخلفي؛ لأنَّنا كنا في الإجازة الصيفيَّة، فوالدي عاد من العمل وهو يحمل بمفرده نخلة صغيرة، طبعًا ذلك لم يمسَّ متعة الاحتفال بانضمام شجرة جديدة لمجموع الأشجار المباركة في حديقة منزلنا.

وبعد الغداء خرجنا جميعًا لنزرع النخلة، هذه المرَّة اختار والدي موقِعًا منفرِدًا للنخلة، زرعها خلف الزَّيتونة والتِّينة، فصنعت الشَّجرات الثلاث مثلَّثًا مقدَّسًا.

ولم يفُتْ والدي أن يداعِبَ جدَّتي كذلك خلال عملية الزِّراعة، فقد كان يقبِّل يدها قائلًا: "عامان، ربما ثلاثة، وتهزِّين إليك جذع النخلة فتَساقط عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا"، كانت جدتي تقف قرب موقع غرس النخلة، وابتسامةٌ عريضة تملأ وجهها. سألتْ جدتي: "هل هذه نخلة عجوة المدينة المباركة؟!"، فأجابها أبي

بالنَّفي قائلًا: "إنها من أجود أنواع النَّخل المجدول"، مضيفًا: إنَّ "نخيل عجوة المدينة لا ينمو إلا في طيبة". وأكمل موضِحًا: "وحتى ولو نَمَت النخلة خارج أرض المدينة المنوَّرة فإنَّه يستحيل أن تطرح ثمرًا". وكما أذكر حادثة زراعة النخلة، فأنا أذكر كيف انطفأت ابتسامة جدتي فجأة بعد هذا التقرير الذي صرَّح به أبي، لكنَّها لم تتوقف عن الدعوة له بالخير والبركة، هذه الحادثة أكَّدت عندي تلك الحقيقة بأنَّ تَمْر العجوة هو تمرٌ مبارك، تمرٌ لا ينمو إلا في تربة المدينة، حتى بعد ذلك بسنوات عندما أدركت أنَّه لا يوجد شيء خاص بتمرِ العجوة ولا حتى تفضيل نبويٌّ، لم أستطِعْ أن ألغي هذا التَّقرير من قناعتي الفكريَّة، بل كنت أحرص كلَّما زرت المدينة المنورة أن أشتري تمر العجوة، وبكميات وافرة كي أهادي منه، وأحتفظ بكميَّة لاستخدامنا في المنزل، أملًا في البركة.

وكما توقَّع أبي، فبعد ثلاث سنوات بدأتِ النخلة في الإثمار، لم تحتَجْ جدتي أن تهزَّ إليها جذع النخلة، فما زالت النخلة صغيرة، وثمارها كانت قريبة من اليد، وعندما استطالت النخلة بعد ذلك بسنوات عديدة، وأصبح ثمرها بعيدًا في السماء، كانت جدَّتي قد فارقتنا، تاركةً وراءها كلَّ أشجار الدنيا!

ترك اختيار أبي لأشجار حديقتنا أثرًا عميقًا فيَّ، فعندما بلغت سنَّ الشباب، وفي إحدى خلواتي الإيمانيَّة في رمضان، قرأتُ قول الله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ١١] ، فما استطعت مقاومة رغبة ضمِّ العنب لأشجار الحديقة، فصنعت لها تكعيبةً خاصة، وزرعتُ أربع أشجار من العنب. لم تستغرق أشجار العنب وقتًا لكي تتسلَّق أركان التكعيبة، وأن تتدلَّى منها ثُريَّات العنب، ولكن العنب كان كما التين ينزع رداءه الأخضر في كلِّ خريف، وفي تجلٍّ إيماني آخَر قرأت قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [الأَنْعَام: ١٤١] ، فزرعت شجرة رمَّان، وهكذا كان هناك دافع خفيٌّ داخليٌّ يحرِّكني كي أضمَّ أشجارًا لحديقتنا، شرط أن أُقنع نفسي بأنَّها أشجار

مباركة كي تنضم لكوكبة الأشجار المباركة في حديقتنا.

على الرَّغم من كلِّ قناعاتي الشَّخصية، بأنَّه لا بركة دينيَّة خاصة لشجر الزيتون أو التين أو الرمان أو العنب، وقطعًا لا تختلف النَّخلة عن بقيَّة الشَّجر، وعلى الرَّغم من كلِّ قناعتي بأنَّ البركة في الفائدة التي يحملها هذا الشَّجَر في ثمره لا في الشجرة ذاتها، وأنَّ هذه البركة أَودَعها الله في كلِّ الثمار التي تؤكل، ورغم أنَّني أعلم بأنَّ النخلة ما كانت ليُشبَّه بها المسلم إلا لأنها تُنبت رطبًا حلوًا مغذِّيًا، وهي التي تنمو في صحراء قاحلة، على الرغم من هذه القناعات الراسخة، وبأنَّه لا يستحق لمسلمٍ أن يُشبَّه بالنخلة إن كان فعله كالحنظل، وعلى الرغم من كلِّ قناعاتي هذه؛ لم أستطِع أن أمنع شعوري بقدسيَّة حديقتنا.

ولا زلت أذكر جيِّدًا ثورتي عندما طلب أخي مِن أبي أن يسمح له بأن يقتطع جزءًا من الحديقة ليبني عليها سكنًا له ولأسرته الصغيرة؛ لأنه لم يكن قادرًا على تأمين سكنٍ لهم بسبب ارتفاع أسعار العقارات، بل كدت أُجنُّ عندما استشعرت شيئًا من الاستسلام عند أبي، أقسمت ألا تُمَسَّ هذه الحديقة. كما ذكَّرني تصرُّف أخي في ذلك اليوم بتصرفه يوم جاوَرَتني شجرة التين في المقعد الخلفي لسيارة أبي، فهو لم يتوقَّف عن استجداء أبي، ولا عن مقايضتي، وكما فعلت في موقعة التينة فعلت هنا؛ رفضتُ كلَّ مقايضة، بل عرضت أن أشتري البيت، وأقدِّم المال لأبي، وله أن يفعل بالمال ما شاء.

تمَّت الموافقة من الجميع على هذا العرض، فاقترضت قرضًا كبيرًا من البنك ما زلت أعيش تحت وطأة أقساطه، وتحوَّلتْ ملكيَّة البيت لي. لم أحْتَجْ كثيرًا من الخبرة لأستشفَّ أثر السعادة في وجه أبي لفعلي هذا. أنا حقيقة لم أكن مهتمًّا بالبيت ذاته، كما كنت مهتمًّا بالحديقة، ذلك الموقف أقنعني بقدسيَّة حديقتنا أكثر، فلم أتَّخذ قرارًا صائبًا بهذه الدرجة في حياتي كلِّها، فكيف كنت سأحقِّق هذا التوفيق لولا بركة حديقتنا.

لعلِّي لو غُصت أكثر في ذاكرتي وأحاسيسي سأعلم بأنَّ قدسية الحديقة عندي ليست نابعة من بركة أشجارها، بل هناك شيءٌ أهم يربطني شعوريًّا بهذه الحديقة، أجَل إنَّها جدتي؛ فأنا أذكر حتى قبل أن تجد التِّينة لها مكانًا في حديقتنا، وقبل أن تنتج نخلتنا رُطَبًا جَنِيًّا، أذكر منذ أن كانت زيتونتنا تقف وحيدة

شامخة مكتسية بأوراقها الخضراء الفضيَّة، أذكر أنَّ جدتي كانت تجلس كلَّ عصر تحت الزيتونة على كرسي الخُوص الذي ما زلت محتفظًا به في مكانه تحت الزيتونة، بل ما زلت محتفِظًا بالوسائد التي كانت تضعها جدتي على كرسيِّها، وتضع أمامها طاولة عليها عِدَّةُ القهوة والشاي. بجانب جدتي وتحت الزيتونة شربت أول فنجان قهوة، وأذكر بأنَّ عمري آنذاك ١٦ عامًا، وكان حبًّا من أول رشفة. تحت الزيتونة شربت أفضل أكواب الشاي بالنعناع الذي كانت تلتقطه جدَّتي من حديقتنا، تحت الزيتونة وبقرب جدتي في جلساتها العصرية سمعت تغريبةَ بني هلال وعرفت بأنَّنا منهم، وتحت الزيتونة قرَّرت أن أُسمِّي ابني البكر زيدًا، حتى أُكَنَّى أبا زيد كبطل تغريبةِ بني هلال "أبو زيد الهلالي"، وتحت الزيتونة تعرَّفت إلى عنترة بن شداد، وعرفت مرارة النُّكران والخذلان، وتحت الزيتونة سمعت أساطير الجنِّ، وتحت الزيتونة حفظت قسطًا وافرًا من الأمثال الشعبية. تحت الزيتونة عرفت فصول السنة، تحت الزيتونة كنت أستمتع بصوت اليمامة وهي تذكر الله، تحت الزيتونة ذاكرت معظم دروسي، وتحت الزَّيتونة أعددت رسالة الماجستير والدكتوراه، تحت الزيتونة قرأت على جدَّتي أول رواية لي، والتي رأت النور قبل وفاتها المفاجئة بشهر واحد.

كنت دائمًا أتساءل: هل الزيتونة تمتصُّ كلَّ هذه الثقافة من أعماق الأرض، فتُطعم بها عروق جدَّتي، فتفيض بكلِّ هذا علينا في قَصَصِها وأشعارها وأمثالها، أم أنَّ حكايات جدتي هي التي كانت تسقي الأرض حول الزيتونة، فتتعمَّق جذورها في الأرض وتستطيل أغصانها في السماء؟

كانت هناك أشياء كثيرة مشترَكة بين جدتي والزيتونة، فجدَّتي كما الزيتونة لم تخلع وقارها في أيِّ لحظة، وإن كان زيت الزيتونة بلسمًا، فيَدُ جدَّتي وتَمْتماتها الصالحة كانت بلسمًا وشفاء، وإن كانت الزيتونة تفيض علينا ببركة ربنا بالطعام، فكلمات جدتي وحكمتها طعام أشبعني لسنوات؛ فجدتي كانت مباركة، لا أظنُّ أن الزيتونة هي التي صنعت قدسيَّة حديقتنا، إنَّها جدتي هي التي أكسبت هذه الحديقة قدسيتها.

في هذه اللحظة التي كنت أشعر فيها بأنِّي محاطٌ بنسمة طاهرة من نسمات جدتي، بل في هذه اللحظة التي كنت أشعر فيها وكأنِّي أسمع صوت تَمْتَماتها الصالحة، شعرتُ بيدٍ حانية تُوضَع على كتفي، تنبَّهت لأول مرَّة منذ

ساعاتٍ بأنِّي أجلس هنا تحت الزيتونة، وعلى كرسيِّ جدتي الذي وضعْتُ عليه وسائدها؛ هذا الكرسيُّ وتلك الوسائد الذين عاهدتهم بالصيانة والرعاية طوال تلك السنوات، فبادلوني حبًّا بحب وحنانًا بحنان، وأمامي كانت طاولة القهوة، لم يكُن هذا غريبًا، بل كنت أفعل هذا منذ أن تُوفِّيت جدَّتي، فلم أترك جلسة العصر تحت الزيتونة إلا لظرفٍ قاهر. التفتُّ جهة اليد الحانية التي كانت تُرَبت على كتفي، فإذا هي يد زوجتي، رفعت رأسي نحوَها وابتسمت، فأجابتني بابتسامة هي الأخرى.

نظرَتْ إليَّ من أعلى، حيث كانت تقف بجانبي وأنا جالسٌ على الكرسي: "لا تحزن يا سالم، لن تُمَسَّ حديقتك، ولن تُقطع أشجارها؛ فلهذه الحديقة قدسية عند أحفادك مستمَدَّة منك أنت، فذاكِرتهم تُروى من قَصصِك وحكاياتك، وثقافتهم تُغذَّى من حِكَمك وأمثالك. سالم، هذه الزيتونة تُسقى بذكرياتك، فتتعمَّق جذورها في الأرض، وتستطيل أغصانها في السماء".

زيتونة الغريب

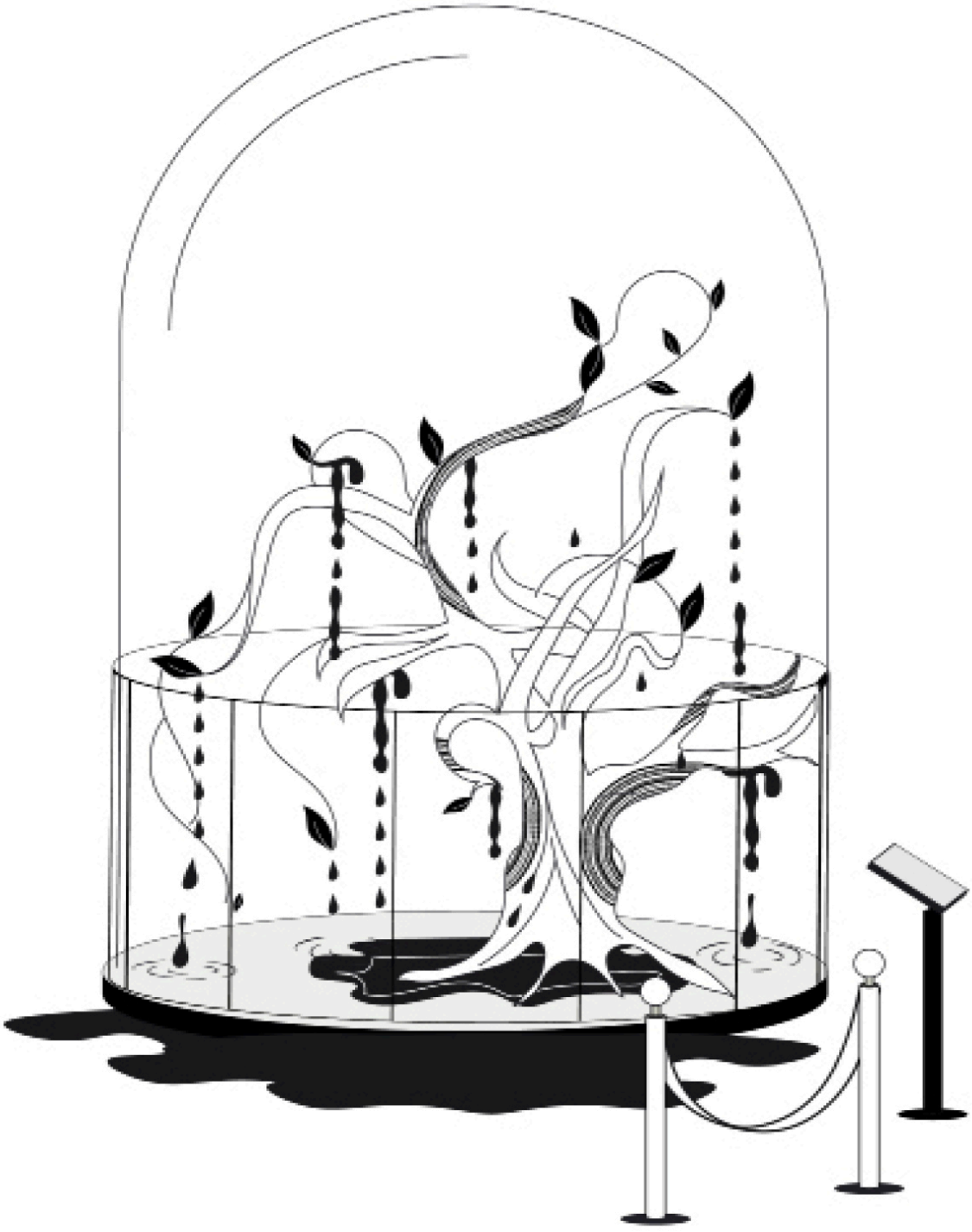

على دلعونا على دلعونا

زيتون بلادي ما أزكى حباته!

ما أحلى أكله ما أحلى زيتاته!

على دلعونا على دلعونا

بارك يا ربي شجر الزيتونة

من الغناء الشعبي الفلسطيني

سماءٌ شبه غائمةٍ، تمنع أيَّ حرارة حارقة يمكن أن تحملها أشعَّة شمس شهر مايو، دون أن أتحجَّب نور تلك الأشعة، كما أنَّ نسائم خواتيم فصل الربيع ساهمت في أنْ تعطي إحساسًا منعِشًا، والانتعاش مهمٌّ، خاصةً عندما تعلم أنَّك ستمضي معظم يومك سائرًا على قدميك متنقِّلًا عبر شوارع وأحياء مالقة.

ويبدو أنَّني سأحتاج إلى جرعة مضاعَفة من الانتعاش، فمرشدي السياحي في مقتبل العمر، ولا ينقصه حماس الشَّباب، مضافًا له حُبِّه الكبير لعمله ومدينته، خلال محادثتي له بالأمس هاتفيًّا، لم يفُتْه أن يؤكِّد ضرورة ارتدائي لحذاء رياضي مريح؛ لأنَّنا سوف نقضي ما يقرب من الستِّ ساعات أو يزيد متجوِّلين على الأقدام، وعندما استفسرت عن إمكانية عمل هذه الجولة بالسيارة، كاد أن يلغي أيَّ اتفاق بيننا، فوجدت نفسي مضطرًّا للقبول دون تردد.

صباحًا كنت أنتظر في بهوِ المنتجع الذي أسكنه، والمشرِف مباشرةً على شواطئ البحر الأبيض المتوسِّط، وفي اللَّحظة التي أشارت فيها عقارب الساعة للتاسعة تمامًا، وهو الوقت المحدَّد لبدء جولتنا، دخل شاب مرتدِيًا قبعة رياضيَّة ويحمل حقيبة على ظَهره، تتبَّعتُه بنظري. توجه لاستقبال الفندق، فأشار له الموظف تجاهي، فتأكَّدت ظنوني بأنَّه هو مرشدي السياحي، تصافحنا سريعًا، قدَّم لي نفسه: "أنا بيدرو".

- صدفة جميلة، أنا بدر.

- حقًّا، إنَّها صدفة جميلة، من يدري ربَّما يكون بيدرو هو تحريف بدر من

العربية!

- آه، فهل أنت من أصول موريسكية؟

- لا، ما الذي يجعلك تظنُّ ذلك؟!

- اقتراحك بوجود صلة بين اسم بيدرو وبدر.

- ما أعلمه حقيقةً هو أنِّي ابن مالقة، وُلِدتُ هنا، وكبرتُ هنا ولا أفكِّر في أنْ أغادر هذه المدينة، ثم لا أعتقد أنَّ بيدرو له علاقة ببدر، وأعتقد أنَّه يجب أن نتحرَّك ونبدأ جولتنا.

- أجل، أجل لنتحرَّك، وعودةً للأسماء يبدو من النُّطق أنَّ هناك تشابهًا في النُّطق الصوتي بين بيدرو وبدر.

- لن أنفي أنَّ هناك تأثيرًا كبيرًا للغة العربية في كثير من مفردات اللغة الإسبانية، لكنَّ بيدرو هو النطق الإسباني لاسم بيتر، وكلاهما مشتقٌّ من النُّطق اللاتيني للاسم بطرس.

- لكن اسم بدر ليس له علاقة ببطرس.

- لم أتوقَّع ذلك إطلاقًا، ولم أقصد وجود علاقة بين بدر وبطرس، بل كنتُ أمزح عندما أشرت لاحتمالية اشتقاق اسم بيدرو من بدر، مجرَّد محاولة للاستلطاف.

- كنت سأكون أكثر سعادة لو علمت بأن بيدرو مشتقٌّ من بدر، فعبد الرحمن الدَّاخل عندما جاء لبلاد الأندلس كان يصحبه خادمه الشخصي، وكان اسمه بدر، وبدر أصبح له شأنٌ بعد ذلك في الواقع السياسي لبلاد الأندلس، وهذا ما جعلني أعتقد أنَّ اسمه ما زال مؤثِّرًا.

نظر لي نظرةً ذات مغزى واضح، وابتسم ابتسامةً ذات معنى أكثر وضوحًا، وقال: "كنت أتمنَّى أنْ أُسعدَك، لكنَّني متأكِّد بأنَّ مالقة ستقدِّم لك الكثير خلال هذه الزيارة، وسوف يسعدك ما سترى.

تنَقَّلْنا عبر شوارع مالقة، تارةً صاعدين، وتارة أخرى هابطين، على الرَّغم من المجهود البدني الكبير الذي كنت أبذله لمتابعة مرشدي السياحي، إلا أنَّني كنت مستمتعًا بكلِّ لحظة؛ فزيارة بلاد الأندلس كانت حلمًا منذ فترة طويلة،

وها هو يتحقَّق، ومالقة هي محطّتي الأولى في هذه الجولة السياحيَّة في إقليم الأندلس؛ الجولة المليئة بالمشاعر.

عند الواحدة ظهرًا توقَّفْنا في أحد المطاعم المنتشرة على الواجهة البحريَّة، كان يقدِّم نوعًا واحدًا من الطعام: سمك السَّردين المشوي على الحطب، ثمَّ يصبُّ عليه كميَّة وافرة من زيت الزيتون. في ذات اللحظة التي غَزَت فيها رائحة زيت الزيتون أنفي، انتبهت لإعلان كبير كانت صورة شجرة الزيتون هي العنصر الأبرز فيه، انتبه بيدرو لتركيزي مع الإعلان.

- يهمُّك أمر زيت الزيتون؟

- هل هو إعلان لزيت الزيتون؟

- أوه، آسف لم أنتبه أنَّ الإعلان بالإسبانيَّة، هو في الحقيقة إعلانٌ عن أهم معرض سنوي لزيت الزيتون، فهذا المعرض يجتذب كلَّ مَن لهم علاقة بزيت الزيتون؛ من مزارعين، وأصحاب المَعاصِر، وموزِّعين.

- جميلٌ جدًّا، هل تعلم بأنَّ شجرة الزيتون جاءت من عندنا من بلاد الشام؟

نظر لي بيدرو بذات النَّظرة المعبِّرة التي صوَّبها ناحيتي عندما دار بيننا حديث التشابه بين بيدرو وبدر، وأردف قائلًا:

- لا أعرف كثيرًا عن تاريخ شجرة الزيتون، لكنَّني لن أستغرب أن تكون جاءت لنا مع الأمويِّين عندما استوطنوا الأندلس، وربما يكون بدر هو مَن حمل الزيتونة في متاعه عندما جاء برفقة عبد الرحمن الدَّاخل..

أضاف بيدرو جملته الأخيرة وهو يبتسِم ابتسامته ذات المغزى، فكان لا بدَّ أن أخفي كلَّ انفعالاتي ومشاعري.

- وهل بالإمكان أنْ أزور المعرض، لمجرَّد الفضول؟!

- المعرض مفتوح للزيارة، وهو في بلدة خايِّن، تبعُد ساعتين من هنا بواسطة السَّيارة، اليوم هو افتتاح المعرض، فبإمكاني ترتيب سيارة تأخذك غدًا صباحًا لزيارته، وانتظارك لإعادتك لفندقك.

- هذا جميلٌ نعم، فليكن ذلك.

- اتَّفقنا، لنُكمل إذًا ما تبقَّى لنا من زيارة اليوم.

صباحًا كنتُ جالسًا في السيارة التي أقلَّتني لمعرض الزيتون الدولي؛

أشجار الزَّيتون تحتلُّ كلَّ التِّلال على جانبَي الطريق. أفكاري عادت إلى الوراء، صنعتُ صورًا متخيَّلة للزيتونة الأولى التي جاء بها ربما عبد الرحمن الداخل، زرعها هناك في حديقة قصره، ومن تلك الزيتونة الأولى تولَّدت أشجار زيتون الأندلس، فهي شجرتنا المباركة. كنت أتخيَّل همسًا يأتيني من أشجار الزيتون تلك المنتشرة على جانبَي الطريق، كأني أسمع شكاواهم من الغربة، ووحشة البُعد والوحدة.

المعرض كان صاخبًا مزدحمًا، مئات الزائرين يتحركون بين أركان المعرض، هؤلاء في حوارٍ مع ممثِّل شركة يقدِّم معروضاته، وآخرون يتذوَّقون عيِّنات من الزيت، وهناك من يطالع منشورًا لشركة، ومجموعة جلست مندمجة مع عرض مرئيٍّ يوضح أحدث وسائل حَصْد ثمار الزيتون وعصرها، بدا وكأنَّ جميع زائري المعرض جاءوا بخطَّة واضحة، كنت الوحيد الذي جاءت به عاطفته، أبهرتني حِرَفيَّة الصناعة والتجارة حول زيت الزيتون، لكنَّها شجرتنا، هي جاءت من هناك من عندنا، فهي لا شرقية ولا غربية، إنها من بلادنا من قلب العالم.

"تفضَّل سيِّدي هل أستطيع أن أخدمك"، جاء مصدر هذا النداء قريبًا منّي جدًّا، فاجتذبني من موجة أفكاري العاطفيَّة، التفتُّ جهة الصوت، قطعًا بدا عليَّ الارتباك، فلم أكُن أتوقَّع أن ينتبه لوجودي أحد، كما أنَّني لا أدري ما المساعَدة التي أحتاجها؟ فأنا هنا لأنها شجرتنا، لا لأني أريد أيَّ خدمة.

- حقيقةً أنا هنا فقط للتعرُّف إلى المعرض، فليس لي هدفٌ أو مطلَبٌ محدَّدٌ.

- التعرف إلى المعرض والمعروضات هدف نبيلٌ وكافٍ، تَفضَّل اجلس على هذا الكرسي، ودَعْني أقدِّم لك فرصة تجربة أجود أنواع زيت الزيتون في العالم، كما ترى العشرات جاءوا لجناحنا لتذوُّق منتجاتنا لأنَّهم على يقين بما نقدِّم، وأنا انتبهت لاندهاشك فأحببت أن أتحدَّث معك.

- أشكرك، ولا أمانع أن أجرِّب منتجاتكم، أما اندهاشي فمصدره أنَّ هذه الشجرة شجرتنا، وزيتها نحن أصحابه، وهي تحظى منكم بكلِّ هذا الاهتمام.

- لم أفهم مقصدك بوضوحٍ سيِّدي، ولكن إن كنت تقصد نوع شجر الزيتون "الأرابيكا"، فنعم هو مِن فلسطين، وهذا سبب اسمه "الأرابيكا"؛ أي العربي،

ونحن ننتج زيت زيتون من فصيلة الأرابيكا، كما ننتج زيتًا من فصائل أخرى لا تقلُّ في الجودة.

- أقصد كلَّ أشجار الزيتون جاءت من عندنا من هناك من بلاد الشام، جاء بها الأمويُّون لهذه السهول، هم مَن أرشد أهل الأندلس لأسرار هذه الشجرة وسبل استخراج زيتها، فهي شجرتنا المباركة، وبلادنا هي مهدها الأُوَل..

- الأمويُّون جاءوا بالكثير لهذه المنطقة، ولهذه البلاد على وجه الخصوص، لكن هذه الشجرة عرفت هذه السهول والمرتفعات منذ زمن بعيد، وهناك آلاف الأنواع من شجر الزيتون، وكلُّ إقليم من أقاليم إسبانيا له فصائله من شجر الزيتون التي تناسب أجواءه وتربته، ومزارعو الزيتون يبحثون عن الأنواع الجيِّدة للعَصْر ويتبادلون الخبرات، والرومان استخدموا زيت الزيتون للإضاءة، لذا هناك نوع من زيت الزيتون الذي لا تؤهله مواصفاته لاستخدامه في الطعام نسمِّيه "لامبانتي"؛ أي الذي يُستخدم للإضاءة، أما كون شجرة الزيتون قد أتى بها الأمويون فهذا تقرير يحتاج إلى دليل لإثباته، فما هو مصدر معلومتك بأنَّهم هم مَن قدَّموا شجرة الزيتون للأندلس؟

- الأمر لا يحتاج لمصدر، الأمر واضح وبَيِّن.

يَنظر لي بتلك النظرة ذات المغزى الجليِّ، ويكسو وجهه ذات الابتسامة التي تحمل معاني واضحة، بل التي هي أكثر وضوحًا من النظرة، ويقول لي:

- ربما! لا أدري، لكنْ هناك مَثلٌ عربي، اسمح لي يا سيدي أن أترجمه بإنجليزيتي المحدودة، وهو: "شجرة الزيتون تريد منك ما تريد منها"، ويبدو يا سيدي أنَّنا عرفنا أكثر منكم، ماذا تريد شجرة الزيتون منا؟

زيتونتي

تعطي الحياة ثمارها لـمـُحارب

لا يعرف اليأس بحلمه مؤمن

إنْ مات غدرًا في الطريق فإنَّه

يموت واقفًا كالشجر لا ينحني

طارق علي

"في الوقت الذي ينتظر فيه العالَم التَّعافي الكامل من وباء كورونا، بدأت تنتشر أخبارٌ من عدة دول عن العودة إلى ارتفاع أعداد الإصابات بمتحوِّر جديد...".

"أزمة اقتصاديَّة جديدة متوقَّعة، ويعتقد أنَّها سوف تؤثِّر في وجود العديد من الدول الصغيرة...".

"أجواء حرب عالميَّة جديدة ما زالت تسيطر على المشهد السياسي منذ أن بدأت التحركات العسكريَّة الروسية باتجاه أوكرانيا في العام الماضي...".

"زلزال بقوَّة ٨ درجات على مقياس ريختر يضرب تركيا وسوريا، يخلِّف مئات الآلاف من القتلى والجرحى، وتدميرٌ شامل للبِنية التحتيَّة في الأماكن المنكوبة...".

كان صوتُ مقدِّم الأخبار يأتيني عبر الراديو أثناء قيادتي للسيارة في طريق عودتي للمنزل، الزحام الشديد كان يصيبني بالملَلِ والنعاس أيضًا، فأردت أن أستمع لأيِّ شيء خلال هذه الرحلة اليوميَّة التي تأخذ من يومي ما يقرب من الـ٤٥ دقيقة، المسافة في غير أوقات الذروة لا تحتاج أكثر من ١٥ دقيقة، لكنَّه الزحام، وبعض أخلاق الناس في استخدام الطريق هي التي تجعل الوقت يتضاعف ثلاث مرات.

هل كنتُ بحاجةٍ لهذا النوعِ من الأخبار كي أحافظ على تركيزي في الطريق وأمنع غزو النَّوم لجفوني؟ ربما، لا أدري، لكنْ في الحقيقة هذه الأخبار جعلتني أشردُ أكثر مع أفكاري. السنوات الثلاث الأخيرة كانت صعبة على العالم أجمع، ولم يكُن وضعي استثناءً لِما يمر به الكثير من الشباب أمثالي. بدأت تجارة خاصة في مطلع عام ٢٠١٩م، وفي الوقت الذي أخذَتْ فيه تجارتي مسارها

الصحيح، ضرَبَ العالَمَ وباءُ الكورونا، فتحوَّلت أحلام النجاح والمال إلى مجرد رغبة في الاستمرار، وها أنا اليوم أعود إلى وظيفةٍ حكومية رتيبة، أملًا في تسديد الديون التي تراكمت عليَّ.

كنت أستمتِع أكثر بالنَّظر إلى السَّيارات من حولي، لمحةٌ سريعة للسيارة التي على يميني أو شمالي عبر النَّوافذ الجانبيَّة، فألمحُ سائق السيارة، أو أحد الركاب الذين معه، فأبدأ في صياغة قصة كاملة أستوحيها من ملامح الشخص الذي رأيته، الأخبار التي كانت تأتيني اليوم من المذياع لم تمنعني من ممارسة هوايتي المفضَّلة.

نظرتُ عبر النافذة التي عن يساري، فإذا بطفلة جميلة، تلبس نظَّارة طِبِّية دائرية بلاستيكية الإطار، ألصقَتْ وجهها على زجاج النافذة الخلفية اليمنى، النظارة منعت وجهها أن يلامس الزجاج.

رغم زجاج النافذة وزجاج النظارة، فإنَّ براءة الطفولة تشعُّ في اتجاه الناظر لعينَيْها، كانت نظراتها مُصوَّبةً تجاهي، لكن لا أظنُّ أنَّها كانت تنظر إليَّ؛ فعيناها -رغم نظرتي السريعة الخاطفة التي وجَّهتُها لها كي لا أسهو عن الطريق- بَدَتا شاردتين مع أحلام الطفولة البريئة، الشرود البادي في عينيها لم يستطع أن يطفئ توهُّج البراءة فيهما، تمامًا كما لم يستطع زجاجُ النافذة أو زجاج النظارة أن يحجبا تلك البراءة، وماذا عسى أن تكون أحلام طفلة صغيرة تلبس نظارة ذات إطار بلاستيكي دائريٍّ، وقد ألصقَتْ وجهها بزجاج النافذة الخلفية للسيارة التي تتحرَّك وسْط الزحام، وهي قطعًا في طريقها للبيت بعد أن أخذها والدها من المدرسة.

طفلة ربما في الخامسة أو السادسة من عمرها تلبس نظَّارة بلاستيكية دائرية الإطار، ماذا يمكن أن يكون منتهى أحلامها؟! الحصول على اللعبة التي رأتها في عطلة نهاية الأسبوع الماضي في الواجهة الأمامية لمحلِّ الألعاب الذي كان في المجمَّع التسوُّقي الكبير الذي ذهبَتْ إليه بصحبة والدَيْها، بكت، ألحَّت، أصرَّت، لكن لم يُجْدِ أيٌّ من ذلك في أن يحرِّك عاطفة والديْها في أن يشتريا لها تلك اللعبة، فسكتَتْ على مضَضٍ، أبقت رأسها ملتفَّا تجاه واجهة محلِّ الألعاب، عيناها تنظران باتجاه اللعبة نظرة الوداع الأخيرة، ويدها المقبوض عليها في يد أمها هي التي تحرِّكها في الاتجاه الذي يريده والداها.

ما زالت لا تدرِك بعدُ مفهوم نهاية الشهر، ستكبرين يا صغيرتي لتدركي أنَّ هناك أوقاتًا من الشهر يحقُّ لنا -المواطنون- الذين نَعْلَق في زحام الشوارع اليومي، أن ننظر لأمنياتنا فقط من خلف نوافذ واجهات المحلات، بل إنَّه لا يحقُّ لنا أن نلصق وجوهنا على زجاج تلك الواجهات، لبسنا نظارة طبيَّة أم لم نلبس، شعَّتْ من عيوننا البراءة أو لم تشعَّ؛ فكلُّ ما نملك أن نفعله هو أن ننظر فقط من خلف زجاج الواجهات الأماميَّة للمحلات.

ربما هي ليست شاردة مع لعبةٍ ودَّت شراءها، نعم فلَمْحَتي السريعة لها أوحت لي بأنَّها طفلة مُنعَّمة، سيارة والدها كانت من النوع الفاخر، أظنُّ كلَّ أمنياتها محقَّقة، دون أن تحتاج أن تصرَّ، أو تلحَّ أو تستجدي، فماذا يمكن أن تكون أحلام طفلة مُنعَّمة في الخامسة أو السادسة من عمرها، تلبس نظارة طبيَّة ذات إطار بلاستيكيٍّ دائري، وقد ألصقت وجهها بزجاج النافذة الخلفية للسَّيارة؟!

آه! ربما تفكِّر في الزواج، الزَّواج؟! وهي في الخامسة أو السادسة من عمرها؟! نعم، لِمَ لا؟ البنات دائمًا يفكِّرْن في الزواج، حتى في ألعابهنَّ، يلعبْنَ "زوج وزوجة"، أجل إنَّها تفكِّر في الزواج، تتمنى أن يخطبها وزيرٌ، لا.. بنت في هذا العمر لا تعرف معنى الوزير، تفكِّر أن يخطبها أميرٌ، أجل، أجل، أميرٌ، لكنْ هل طفلات اليوم ما زِلْن يحلُمْن بالأمير الفارس الذي يأتي على حصانه الأبيض؟!

أظنُّ الحصان الأبيض أصبح من تقاليد الماضي، حتى نهاية الروايات القديمة "وعاشوا في رفاهٍ وبنين" أصبحت نهايةً أثريَّةً لا وجود لها اليوم في ثقافة الأطفال مهما شعَّ من أعينهم من براءة.

قرَّرتُ أن ألتفِتَ تجاهها مرَّةً أخرى، عَلِّي أرى في وجهها مَلْمحًا لم ألاحظه خلال نظرتي السابقة، لكنَّ نظرتي هذه جاءت خائبةً، فلَمْ تكُنِ السيارة التي على يساري هي السيارة التي تقلُّ الفتاة ذات الخامسة أو السادسة من عمرها، التي تلبس نظَّارةً بلاستيكيَّةً، وتشعُّ من عينها البراءة رغمًا عن زجاج النافذة وزجاج النظَّارة وشرود عينَيْها، فأعدْتُ نظري مرة أخرى منتبِهًا للطريق.

الزِّحام ما زال سيِّد الموقف، نتحرَّك ببطءٍ شديد، لا زلتُ بحاجةٍ للإلهاء،

جفوني سوف يُسيطِر عليها النُّعاس إن غفلتُ عنها، نظرتُ هذه المرَّة في لمحةٍ خاطفة من زجاج النافذة اليمنى للسيَّارة، رجلٌ ربَّما في الثلاثين من عمره، بدا في حوارٍ صاخب، فيده اليسرى ممسِكة بمِقْوَد السيارة، في حين كانت يده اليمنى تتحرَّك بإشارات دالَّة على حساسيَّة حديثه، كان وحيدًا في السيارة، فهو -قطعًا- كان يتحدَّث مع شخص آخر عبر ميكروفون التلفون، أو ربما هاتفه متَّصل بخاصية البلوتوث في سيارته، أو قد يكون مستخدِمًا لسماعات الأذن، ولكنِّي لم ألحَظْها خلال نظرتي السَّريعة.

أظنُّه في حوارٍ ساخن مع زوجته، اتَّصلَ بها ليُخبرَها بازدحامِ الشارع، وأنَّه ربما يتأخَّر في الوصول للبيت، فأبدت تأفُّفها من تأخُّره ظهيرة كلِّ يوم عند عودته من العمل، أزعجه تأفُّفها، فاعترض على ذلك، قال لها: "وهل أنا الذي يصنع هذا الزحام؟!".

فردَّت عليه بتأفُّفٍ آخر أزعجه أكثر من تأفُّفها الأول: "أنا أمضي النهار كلَّه وحيدة بين أربعة جدران، وزيادةً على ذلك مطلوبٌ منِّي أن أُجهِّز لك الطعام، وأعتني بشؤون البيت".

تأفُّفها هذا هو الذي أثار حركة يده اليمنى: "وهل تظنِّين أنِّي كنت ألهو وألعب في مقر العمل؟ هل تظنِّين أنِّي لا أودُّ أن تحصلي على وظيفة، فنَتَساعد في مصاريف الحياة؟ ألم أطلب منكِ بل رَجَوْتك بأن تظلِّي هناك عند أهلك في حين أن أتغرَّبُ من أجل تحسين وضعنا المعيشي فرفضتي؟". كانت كلُّ كلمة من هذه الكلمات تخرج من عمق مشاعره، فكانت لا تُحرِّك يده اليمنى فقط، بل كانت تحرك كيانه كله.

كيف عرفت أنَّه مغترب؟ من سيارته؛ فهي من النوع الذي يفضِّله المغتربون عادةً، وكيف عرفت أنَّه يكلِّم زوجته؟ من وقت المحادثة؛ فمن الذي عساه أن يكلِّمه في هذا الوقت من اليوم؟ كيف عرفت أنَّه يتشاجر؟ من ملامح وجهه المكفهرَّة، هل كان حقًّا وجهه مكفهرًّا؟

أظنُّ أني أحتاج أنْ أنظر إليه نظرة أخرى سريعة، لأستوضح حقيقة معالم وجهه، لكنَّني شِبه متأكد أنَّ ملامحه كانت مكفهرَّة، اغتنمت توقُّف الشارع بعد فترة من الحركة والتفتُّ جهة اليمين، أملًا في نظرة سريعة لوجه قائد السيارة التي كانت على يميني، ولكن كما كان الأمر مع وجه الطفلة ذات

الخمس أو الستِّ سنوات، والتي تلبس نظّارة بلاستيكيَّة الإطار، لم أجد صاحب الوجه المكفهر، والذي كان يحرِّك يده اليمنى، إنما وجدت عن يميني سيارة من ذلك النوع الذي ينقل المواد الغذائيَّة، وعلى جانبها كان هناك إعلان للمنتَج الذي تنقله: "زيت زيتون القدس... زيت زيتون أردني طبيعي ١٠٠٪".

استوقفني هذا الإعلان، يا له من إعلان غريب! إعلان مصاب بالشيزوفرينيا، زيت زيتون القدس يأتي من الأردن! هذا إعلان لا يقول لنا عن حقيقة المنتج، بل هو يخبِرُنا عن حقيقة الحياة؛ فالطَّعام أصبح تجارةً، والصحة أصبحت تجارةً، والسِّياسة أصبحت تجارةً، وحتى الدِّين أصبح تجارةً.

في هذا الوقت الذي كنت أفكِّر فيه في هذا الإعلان المصاب بانفصام الشخصية، تحرَّك الطَّريق، ووجدت سيارةَ نقلِ المواد الغذائيَّة، والتي كانت عن يميني، قد وجدت فجوةً أمامي، فلَمْ يتردَّد سائق تلك السيارة أن يحشر سيارته فيها، فأصبحت أمامي مباشرة، لأقرأ ما كُتِب عليها من الخلْفِ: "زرعنا لك أفضل أنواع شجر الزيتون؛ لتحصُل أنت على أفضل زيت... زيت زيتون القدس".

خشب الزَّيتون

ألم ترَ ما بيني وبين ابن عامر من الودِّ قد بالت عليه الثَّعالب

وأصبح باقي الودِّ بيني وبينه كأن
لم يكُن، والدهر فيه العجائب

فقلت: تعلم أنَّ صَرْمَك جاهد ووَصْلَك عندي بينه متقارب

فما أنا بالباكي عليك صَبابةً،
ولا بالذي تأتيك منه المثالب

عمرو بن الأهتم

ربَّما وربما وربما... عشرات الاحتمالات تنتهك حاضر ذهني قادمةً من الماضي، هي ليست مجرَّد ذكريات، الذِّكرى حدَثٌ من الماضي يبقى خالدًا لِما يحمِل من مشاعر مُفرِحةً كانت أو مؤلِمة، أما هذه الاحتمالات التي لم تتوقَّف عن انتهاك حرمة عقلي منذ أكثر من عام كامل، فهي أقرب لجَلد الذات من كونها ذكريات مؤلمة.

الغريب في الأمر أنِّي لا أعرف خطأ معينًا وقعتُ فيه، فأنا أجلد نفسي لمجرد احتمالات؛ احتمالات صنعتُها بنفسي من خلال التساؤلات الكثيرة التي تلحُّ عليَّ، والتي تبتدئ دائمًا بكلمة "ربما"، الغريب أنَّ هذه الكلمة تقفز قهريًّا إلى وعيي الحاضر، تقفز منفردةً مجرَّدة فأجتهد بعدها وبتركيزٍ كبير كي أجد لها فكرة تصاحبها، وهذا المجهود الذهني هو الذي أرهقني وآلمَني على مدى عام كامل.

قادَتْني مشاعري هذه لزيارة طبيب نفساني، فأرشدني لضرورة زيارة أخصائي نفسي، الذي نصحني بدوره ببعض تمارين الاسترخاء، وبعض الحِيل الفكريَّة التي قد تُسهم في وَأْد هذه الأفكار والتساؤلات المرهقة، وعندما لم تفلح جميع هذه التدابير، طَلَب منِّي معالِجي النفسي العودة للطبيب النَّفساني! فهكذا أصبحت مع الطبيب في دائرةٍ مغلقة تلتفُّ على نفسها، كان هذا وضعي في الحياة على مدى عام كامل أعيش في دائرة مغلقة، أنتهي دومًا حيث بدأت.

سألني مرَّةً صديقٌ عن شرودي الدَّائم، فقلت له: إنّني كنت -فيما مضى- لا أدرك حيرة الحلَّاج، وهو يتكلَّم عن الدائرة ومَركز الدائرة، والفوقاني والتحتاني، ودائرة الدائرة، لكنِّي اليوم أدرك حيرته؛ فأنا أعيش في دائرة ليس

لها مركز، وعندما تتوه في دائرتك فأنت قطعًا لا تدرك ما فوقَك، وماذا عسى أن يكون تحتك؟ وهكذا اليوم بِحيرتي أدركت معنى الحيرة التي يعيشها الآلاف غيري، الحيرة أصبحتْ هي الشيء الوحيد المعرَّف عندي.

الطَّبيب كان دائمًا يؤكِّد لي أنَّ هناك تحسُّنًا ملحوظًا، وبأنِّي سأتعافى قريبًا، الحقيقة لم أشعر بهذا التحسُّن الملحوظ، أو دعني أقول: إنَّني لا أملك تعريفًا واضحًا لمعنى التحسُّن، لذا فأنا لا أستطيع أن أحدِّد مدى تحسُّني، عمليًّا هذه الأفكار التردُّدية الاحتمالية ما زالت تُعاودني، تَجْلدني، وتُرهقني، الفرق الوحيد بأنِّي لم أعُد أتوقَّف عن الاستمرار في الحياة، وأتحرَّك في حالةٍ من التبلُّد الشعوري، ولا يتوقف عقلي عن طرح احتمالاته اللامنتهية، ربَّما وربما وربما...

قبل عامٍ مضى، كنت مثالًا للإيجابية والإقبال على الحياة، كنت أعرف احتمالًا واحدًا فقط، وهو أنَّني سأحقِّق النجاح في كلِّ خطوة جديدة آخذها، كنت أعيش في خطوطٍ مستقيمة لها نقطة بداية أستطيع من عندها بوضوحٍ أن أحدِّد نقطة النهاية، وكان عند كلِّ نهاية بداية جديدة، كنت حينها لا أعرف تعريفًا لكلمة "ربَّما"، كنت واثقًا من كلِّ شيء، واثقًا من أدائي في العمل، واثقًا من أفكاري، واثقًا من علاقاتي، آه! من علاقاتي، هي التي أوصلتني لهذه الحالة من الوَهْن الذي أعيشه الآن.

أعلم بأنَّك تتساءل الآن: أيُّ نوع من العلاقات هي التي قادتني إلى هذا الحال من اضطراب المسار؟! أوه، أعجبتني جدًّا جدًّا كلمة "المسار"، صحيح هذا ما أُعاني منه بدقَّة، اضطراب المسار، لست مكتئِبًا، ولست قلِقًا، ولا أعاني من الوسواس القهري، حتى ولو كانت الفكرة تقفز لذهني قهريًّا فهذا ليس اضطراب الوسواس القهري، هذا اضطراب في مساري. لِنَعُدْ إلى التساؤل الذي أعلم بأنَّك تودُّ أن تحصل على إجابة عنه: أيُّ علاقة هي التي قادتني لهذا الاضطراب؟ هل يهمُّ أنْ أحدِّد نوع العلاقة؟ هل سيكون الأمر مختلِفًا إنْ كان الفشل في علاقة عاطفيَّة أو اجتماعيَّة؟ هل الفشل في علاقات العمل أو الصداقة أقلُّ وطأة من الفشل في العلاقات الغرامية؟ أيُّ فشل في أيِّ علاقة له تأثير سلبي على تحديد مساراتنا؛ فنحن نتشكَّل بشكلٍ مختلف بعد فشل العلاقة عما كنَّا قبلها، تمامًا كما تشكَّلْنا بشكلٍ مختلف قبل نجاح علاقاتنا. لا يهمُّ نوع العلاقة، ما يهمُّ في المَقام الأساسي هو نجاح هذه

العلاقة أم فشلها؟ لذا اعذرني، لن أخبرك صراحةً عن نوع العلاقة، كلَّ ما سوف أخبرك به أنَّني منذ عامٍ مضى وأنا غير قادر على التأقلم مع التشكُّل الجديد الذي أصبحتُه بعد فشل علاقةٍ ما.

صباحًا كنتُ على موعدٍ مع طبيبي النَّفساني، تردَّدت كثيرًا في الذهاب إليه، مجموعة كبيرة من التوقُّعات كانت تسيطِر على فكري منذ ليلة البارحة فيما يخصُّ زيارتي للطبيب هذا الصباح، جميع هذه التنبُّؤات تبدأ بـ"ربَّما": ربَّما سوف يخبرني بأنِّي مستمرٌّ في التحسن الذي لا أشعر به، ربَّما ستظهر عليه علامات الضِّيق من حضوري مما يقتل عندي أيَّ أملٍ في الحصول على أيِّ نوع من المساعدة الطبيَّة التي أحتاجها، ربَّما يطلب مني العودة للأخصائي النفسي مجدَّدًا، ربَّما.. وربَّما.. وربَّما...

لكنْ رغم كلِّ هذه الأفكار دفعتُ نفسي مرغَمًا على الذهاب إليه، وعكس توقعاتي، استقبلني بابتسامة كبيرة، تنمُّ وبصدقٍ عن اهتمامه بي كإنسان، ثم سألني وبصدقٍ أيضًا عن وضعي الآن: كيف أقيِّمه ذاتيًّا؟ نظرت تجاهه لأول مرَّة بصدقٍ أيضًا، وأخبرته بأنِّي توصَّلت لقناعةٍ راسخة بأنَّ مشكلتي تكمن في أنِّي أعاني من اضطراب المسار.

فاجأتني ردَّة فِعل طبيبي الذي اكتشفت فيه الجانب الإنساني لأوَّل مرَّة، اتَّسعت ابتسامته الصادقة، أمسَكَ بيدي وأخذني لغرفةٍ مجاورة أضاء أنوارها، فإذا هي مليئة بمنحوتات خشبيَّة صغيرة قد رُصَّت فوق أرفف منسَّقةٍ بشكلٍ جميلٍ، المنحوتات كانت متفاوِتة، أكواب خشبية، تماثيل صغيرة، أطباق وملاعق خشبيَّة، وغيرها من المنحوتات، بدت وكأنها جميعها نُحتت من نوع واحد من الخشب.

التفتَ نحوي، وقال: "انظر لهذه المنحوتات، كلُّها نُحِتَت من خشب الزيتون؛ فالفنان الذي صَنَع هذه المنحوتات هو أبي، حيث كانت له مزرعة كبيرة من الزيتون، كانت تمثِّل بالنسبة له ولأسرتنا كلَّ شيء، في مدة قصيرة ولأسباب عديدة تحوَّلت هذه المزرعة بما فيها، من ١٠٠٠ شجرة زيتون، إلى أرض خرِبة، أَسْقَط شجر الزيتون أوراقه، وتحوَّلت الأشجار إلى أشباح خشبيَّة منتصبة بلا روح، اضطرَب مسار حياة أبي، بل اضطرب مسار حياة الأسرة كلِّها، وصَلَ أبي إلى هاوية الانتحار، لكنَّه قرَّر في صباح ذات يوم أن يأخذ

خشب الأشجار، وبدأ في تشكيله، فصنع منه منحوتاتٍ كان يبيعها ربما بأضعاف سعر زيت الزيتون، سألته ذات مرَّة عَمَّ يفعل؟ فقال: تُشكِّلنا مصاعب الحياة أحيانًا، فلا يكون لنا إلا خياران؛ خيار الفشل بأنْ نتشكَّل كما أرادت لنا المصاعب، أو خيار النجاح بأن نجبر الحياة أن تتشكل مرَّة أخرى في اتجاه مسارنا الجديد".

زيتونة الذِّكريات

أنا يا عصفورة الشَّجنِ مثل عينيك بلا وطن

بي كما بالطفل تسرقه أول الليل يد الوسن

واغتراب بي وبي فرح كارتحال البحر بالسفن

أنا لا أرض ولا سكن.. أنا عيناك هما سكني

راجع من صوب أغنية يا زمانًا ضاع في الزَّمن

صوتها يبكي فأحمله بين زهر الصمت والوهن

من حدود الأمس يا حلمًا زارني طيرٌ على غصن

أيُّ وهمٍ أنت عشت به كنت في البال ولم تكُن

علي بدر الدين

لم تكُنْ هذه رحلتي الأولى بالطائرة، فطبيعة عملي -في حدِّ ذاتها- تجبرني كثيرًا على السَّفر، بل إنَّ وجهة السَّفر هذه -على وجه التحديد- التي أنا مُقدِم عليها، قد استخدمتها ثلاثين مرَّة على أقل تقدير في الثلاثين سنة الماضية، لكن هذا لم يمنع أبدًا أن تأخذ رهبة السَّفر من قلبي موقعًا رئيسًا، فلِرُكوب الطائرة -في حدِّ ذاته- رهبته وقدسيته الخاصة.

الشُّعور بأنك مسلوب القدرة، أو الإرادة من جهة، ومن جهة أخرى كونك تحلِّق على ارتفاع يتخطَّى الثَّلاثين ألف قَدم، عاملان مساهِمان في فرض رهبة ركوب الطائرات، ويجعلان للسفر قدسيَّته الخاصة. كثيرًا ما أنسى ما درَّبني عليه أبي من ترديد دعاء الركوب عندما أنطلِق بسيارتي، لكني لم أنسَ قَط ترديد دعاء السَّفر عندما أركب الطائرة، بل إنَّني أعيد دعاء السفر مرة بعد مرة كلَّما شعرت بأني سهوت عن التركيز بحضور كامل ذهني عن كلمة من كلماته.

عجيب أمر الإنسان، يتعامَل مع الإيمان والتوكُّل على الله بشكلٍ ماديٍّ بحتٍ، أُعْطي لآخُذَ، في حين أنَّنا نغفل أو نتغافل عن أنَّ أدق تفاصيل حياتنا هي جميعها أخذٌ غير محدود، ولذا وجب علينا العطاء، ولكنَّنا نحن البشر نتكبَّر حتى على أنعام خالقنا، فنظنُّ أنَّها حقٌّ مكتسَب لا نعمة موهوبة.

وعجيب أمري كذلك، فأنا أدخُل في حالةٍ من الفلسفة الإيمانيَّة كلَّما تملَّكتني رهبة السفر؛ السفر وركوب الطائرة، وأضِفْ عليهما هذه الوجهة

المحدَّدة من السَّفر، جميعها عوامل تضاعِفُ من هذه المشاعر العميقة المغلَّفة بهذه الأفكار الفلسفيَّة. ثلاثون عامًا تضمَّنت ثلاثين رحلة -على أقلِّ تقدير- لذات الوِجهة، لكن أبدًا لم يؤثر هذا التكرار في تقليل قوة المشاعر وعمقها.

رحلة العودة لمسقط رأسي، هذه الرحلة التي تذكِّرني بأنَّني مغترِب، لم أفهم قَط معنى الغربة؛ لأنَّني عندما أعود للبلد الذي ولدت فيه أشعر بأنَّني غريب، أفكِّر بطريقة مغايِرة عن الناس هناك، أتصرَّف أحيانًا كثيرة بطريقة مختلفة عنهم، حتى طريقتي في الكلام أصابها شيءٌ من التحوُّر، هل سنوات الابتعاد الثلاثون هي التي أحدثت هذا التغيُّر؟ لا أدري.

في بلدي الأم حيث وُلدت، وحيث تعود كل أصولي، فقدت الإحساس بالحياة، فقدت الثقة في المستقبل، شعرت وكأني فقدت كرامتي، هنا في بلاد المهجر، استعدت كرامتي، أصبح لي حق أن أحلم بمستقبل، بل أصبحت أعتبر هذه الأرض هي وطني.

هل يعني هذا أنِّي أعيش حياة بلا منغِّصات في بلدي الجديد؟ إطلاقًا؛ فلَوْنُ بشرتي الحِنطيُّ يذكِّرني يوميًّا بأني لا أنتمي لهذا المكان، اسمي، شَعري الداكن المموَّج، لَكْنَتي، وحتى قهوتي التي أشربها، كلُّ شيء يَشي بأنِّي غريب، لكن رغم كلِّ شيء فأنا آمِن، أنام ليلًا كإنسان وأصحو صباحًا كإنسان، كثيرًا ما كنت أرى وجوهًا عابسة خلف الابتسامات الصفراء التي يَلْقونني بها، لكنْ رغم ذلك العبوس المتخفِّي لا يملكون إلا احترامي واحترام مكانتي كأستاذ جامعي.

مجتمع عنصري، مادي، فِئوي، لكن هناك قانون يحميك. أذكُر أنه منذ ما يزيد على عَشر سنوات عندما حصلت على إثبات المواطَنة في البلد الذي أعيش فيه، مازَحَني صديقٌ قائلًا: "مبارك، الآن أصبح من حقِّك أن تترشَّح للانتخابات الرئاسيَّة".

تتسارَع الطائرة على مدرَّجها، تهتزُّ اهتزازاتها التي تنفضُ بها صِلتها بالأرض لتنطلق مرتفعة في السماء، ومع تسارعها واهتزازاتها، تتسارع أفكاري، ويزداد تعمُّقها الفلسفي، تستمرُّ الطائرة في الارتفاع حتى تصل لارتفاعها المقرَّر، فيهدأ اضطرابها ويستقيم مسارها، ومع هدوئها تهدأ أفكاري وتسكن،

وكما هي العادة تنعس عيناي، وأدخل في نومٍ عميق، حتى هذا الأمر عجيب، الارتفاع جزء من مخاوفنا، وعلى الرغم من ذلك عندما تستقرُّ الطائرة في ارتفاعها المقرَّر نشعر بالهدوء والطمأنينة.

تمرُّ ساعات الرحلة دون أن أشعر بمعظمِها، النوم يجعلني غير قادر على أن أقرِّر إنْ كانت مرَّتْ متسارعةً أم متباطئة، لكنَّها مرَّت على أيِّ حال، وها نحن نهبط في المطار، الساعة التالية للهبوط هي ساعة اعتيادية، ومنذ حصولي على إثبات المواطَنة الجديدة، فأنا ألقى معاملة استثنائية عند إنهاء إجراءات الوصول، فلا تأخير ولا أسئلة لا تُدرِك معناها ولا مغزاها، لا شيء من هذا إطلاقًا، أقدِّم الجواز يستلمه منِّي بابتسامة، يختمه ويعيده بابتسامة، بل لا عبوس خلف تلك الابتسامة، إنها ابتسامة مجرَّدة، تطول الفترة أحيانًا بعد هبوط الطائرة وحتى خروجي من المطار لأكثر من ساعة، وأحيانًا تَقْصر عن الساعة، الفيصل في ذلك يعود لاستلام الحقائب.

عند خروجي من المطار يبدأ روتيني المحدَّد الذي أتَّبعه في كلِّ زيارة لمسقط رأسي، عادةً ما أقضي أسبوعًا أو عشرة أيام خلال الزيارة، لا أدري لماذا لا أحب أن أطيل زياراتي؟ هل أكره البقاء؟ لا أعتقد ذلك؛ فزياراتي دائمًا مفعَمة بالمشاعر الحميميَّة، هل أخشى أن أعتاد على المكان فيصعب مغادرته؟ أيضًا لا أظن هذا السبب، ربَّما هو تعمُّق الشعور بالغربة الذي يدفعني لعدم المكوث مدَّةً طويلة، وجودي هنا يُذكِّرني دائمًا بغربتي المزدوجة، عمومًا لي روتيني الخاص كلَّما عدت لمسقط رأسي؛ روتين لم يتغيَّر على مدى الثلاثين عامًا، غالبًا ما يبدأ بزيارة قبور الذين فارقونا، وقطعًا أعدادهم تزداد عامًا بعد عام، لماذا أُصِرُّ على هذه الزيارات؟ أيضًا لا أدري، ربما هو الشعور بالذنب بأنِّي كنت بعيدًا عنهم وهم أحياء، فوجَب عليَّ بِرُّهم وهم أموات، لا أدري إذا كان هذا هو السبب الحقيقي أم هذا مجرَّد فلسفتي العاطفيَّة للأمر؟ عمومًا، بعد زيارة القبور تأتي زيارة مطاعم محدَّدة، تلك المطاعم الشعبية البسيطة التي كنا نلجأ لها أنا وأصدقائي -خاصة في الإجازة الصيفيَّة- لنستمتع ببعض ما قُدِّم، كثيرٌ منها إن لم يكن جميعها قد اختفى، لكنَّني وجدت بدائلَ مشابهة لها؛ زيارة بيت الأسرة القديم والنوم في غرفتي القديمة، زيارة الأحباب الباقين من الأهل والأصدقاء، وهذا يستوعب ما بقي

من الأيام، جميعها كانت زيارات روتينيَّة أحرص عليها في كلِّ مرة أعود فيها لمسقط رأسي، لكنَّها أبدًا لم تفقد قيمتها ولا رَوْنقها.

كان هناك نداء أو شعور أو ربما إحساس، لا أدري ما هو تحديدًا، كانت هناك قوة تجتذبني لمكان محدَّد، أشعرها منذ اللحظة الأولى لوصولي للمطار، كنت أقاوم قوة الاجتذاب هذه ما استطعت، لكنها تزداد بمَرِّ الأيام، أنا لا أقاومها لأني أكرهها أو أخشاها، لا.. أنا مجرد أقاومها، ربما هذا الدفع كان يُعَمق داخلي ذكرى محور الجذب ذلك، فيضفي عليَّ هذا الجذب وذلك الدفع شعورًا هو خليطٌ من اللذة والفقد.

كنت أستمر في المقاومة هذه حتى يومي الأخير، ثم أترك نفسي تمامًا لأقع أسيرًا لتلك القوة، فأستيقظ مبكرًا، وعلَّ هذه القوة هي التي توقظني في تلك الساعة الباكرة من الصباح؛ فليس من عادتي الاستيقاظ في هذا الوقت في أيام الإجازة، أستعد للخروج من المنزل، أنتبه لأدق التفاصيل، حتى ألوان الملابس التي أرتديها أفكر فيها بحرص، أختارها زاهية، شبابية ربما، أُغرق نفسي بالعطر، كل هذه التفاصيل كانت تُبهجني، وترسم ابتسامة عريضة على وجهي.

أندفع خارجا من المنزل، فيمتلئ رأسي بصوت "فيروز" وهي تغني:

"بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق
تكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق
بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق
تكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق
وبكرة بتشتي الدني ع القصص المجرحة
بيبقى اسمك يا حبيبي واسمي بينمحي
بيبقى اسمك يا حبيبي واسمي بينمحي"

وعلى نغمات صوت غناء فيروز كانت خطواتي تتسارع، بل ربما تتراقص، رجل في عمري ومكانتي يتراقص؟! ولِمَ لا؟ هي لحظات قليلة، هو يومي الأخير هنا، ساعات وأركب الطائرة لأعود من حيث أتيت، الآن وقت الاستسلام التام لهذه القوة الجاذبة والتراقص على أنغام "بكتب اسمك يا حبيبي".

لم أكن بحاجة لأن أفكر في الطريق، اتجاهاتي تحددها تلك القوة المغناطيسية الجاذبة، ففي ذلك المكان كنا نجتمع نحن الصِّبية الصغار، نلعب ونتشاجر، نتسامر ونختلف، حتى عندما أردت أن أختبئ عن والدي لأُجرب سيجارتي الأولى والتي لم أجرب غيرها في حياتي كانت هناك، فذلك المكان ما زال يختزن صدى ضحكاتنا وصراخنا وأسرارنا، لكن ليس هذا هو سر قوة الجذب.

أَصِلُ للحديقة العتيقة التي كانت قرب منزلنا القديم، رغم أنها ساعات الصباح الباكرة إلا أنها لم تخلُ من وجود الصِّبية فيها، بعضهم يلعبون هنا، ومجموعة أخرى يتشاجرون هناك، أصواتهم وصرخاتهم تملأ المكان، هرمت الحديقة وهرمت أشجارها لكنها ما زالت مأوى أفراح الصغار وخزينة أسرارهم، وليس هذا أيضًا سر قوة الجذب التي أتت بي.

أقترب أكثر لمركز المغناطيس الجاذب، وكلما اقتربت ارتفع صوت فيروز في رأسي: "بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق"، لكنها لم تكن شجرة حور، بل كانت زيتونة معمرة، عريضة الجذع، انتزع الزمن أجزاء كثيرة من لحائها، ولكن بقي خشب الجذع ككرَّاس ذكريات أمين، عشرات النقوش حُفرت عليه، احتضن الجذع كل نقش منها بحب وعطف، هل آلم الجذع ذلك النحت؟! ربما، ولكنها آلام كآلام الوشم، تغيب سريعًا ويبقى أثرها طويلًا.

أمد يدي أتركها تتوجه لجذع الزيتونة؛ فأصابعي تدرك أين تركت آثارها، أتحسس بكفي خشب الجذع، يقرأ جلد أصابعي تلك النقوش: ذكرى عام... الحب الأبدي، ذكرى التخرج من الثانوية العامة... ذكريات لا حصر لها بعضها قديم وبعضها حديث، حتى تصل يدي لذلك النقش، قلب يخترقه سهم، عند النصل نقش حرف، وعند الطرف الآخر نقش أول حرف من اسمي.....

"بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق

تكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق

بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق

تكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق

وبكرة بتشتي الدني ع القصص المجرحة

بيبقى اسمك يا حبيبي واسمي بينمحي
بيبقى اسمك يا حبيبي واسمي بينمحي"

زيتونةُ عشتار

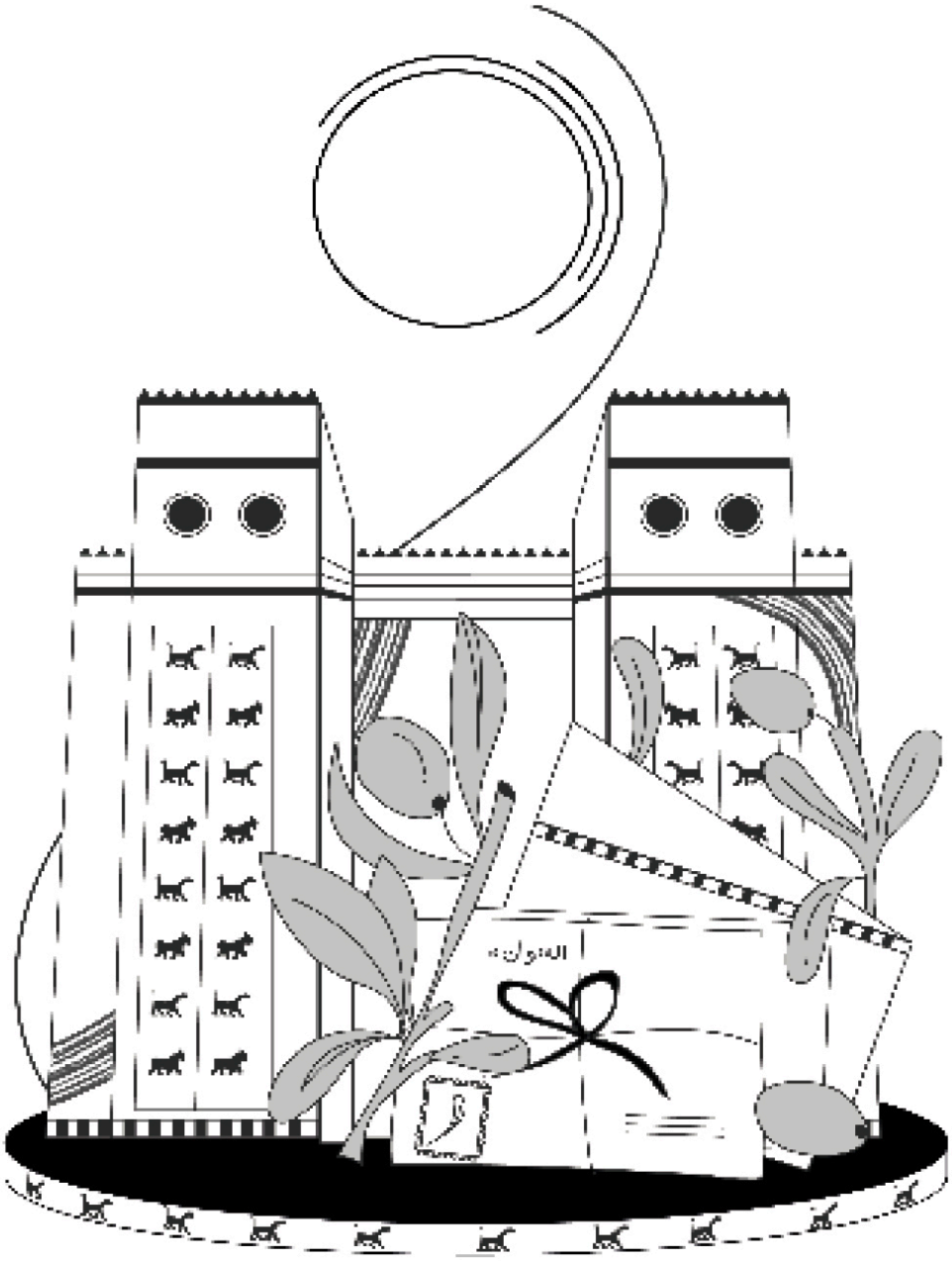
العنوان

ما دامت لي من أرضي أشبار
ما دامت لي زيتونة..
ليمونة..
بئرٌ..
وشجيرةُ صبَّار..
ما دامت في بلدي كلماتٌ عربيَّة
وأغانٍ شعبيَّة
ما دامت لي عيناي
ما دامت لي شفتاي
ويداي
ما دامت لي.. نفسي
وستبقى لي نفسي..
وستبقى كلماتي
خبزًا وسلاحًا..
في أيدي الثوَّار

سميح القاسم

أيَّتها الإلهة عشتار، أو ربما أحببتُ أن أناديكِ بإفروديت، أو عناة، لستُ إغريقيًّا، ولم أكُن سوماريًّا، إنَّما أنا عربيٌّ قُحٌّ فلا أعرفكِ إلا باسم عشتار، ولكن أيًّا كان اسمكِ الذي نوديتِ به، فأنتِ الزَّهرة الزهراء، سيدة النِّساء، وسيدة السَّماء، أنتِ أجمل الجميلات، عشتار.. اعتبِريني تمُّوزكِ الذي قبلت الزواج منه، تمُّوز الذي يغيب في عالم الأموات ستَّة أشهر ويظهر للحياة ستَّة أشهر، يغيب فيحلُّ الصيف ويَتْبعه الخريف، ويعود فيعمُّ الأرضَ الشتاء ثم الربيع.

عشتار.. يا إلهة الحبِّ والحرب، لا أدري كيف يجتمعان؟! أسألك بكلِّ ما تملكين من قوَّة غواية، ألَّا تجعلي مني الراعي الذِّئب، وأيضًا لا أعلم كيف يجتمعان؟! كيف لراعي الغنم الذي يمتلئ قلبه رحمة على أغنامه، أن يصبح ذئبًا قاتلًا للأغنام ومفترسًا لهم؟!

آهٍ يا إلهة الحبِّ والحرب والغواية، يا إلهة المتناقضات، فعِشقك الذي تَمكَّن من قلب ذلك الراعي هو الذي أحاله ذئبًا مفترِسًا، وغضبكِ على تمُّوز هو الذي أخذه إلى باطن الأرض، حيث عالَم الأموات، فالحبُّ تأتي معه الأنانيَّة، والأنانية هي أمُّ الجريمة الأولى..

عشتار.. متى يتوقَّف سيل ضحاياكِ الجارف؟ عشتار.. متى يصبح الحبُّ صافيًا من أيِّ أنانية؟ عشتار.. هل حقًّا نجمة الزهرة هذه التي تتلألأ في السماء

هي "واناهيذ" التي فتنت هاروت وماروت؛ مَلَكين خُلِقا من نورٍ فألهاهما السِّحر فأصبحا فتنةً، كيف للنور أن يقترن بالفتنة؟! وكيف للحبِّ أن يقترن بالعذاب؟!

عشتار.. مِن بوابتك العظيمة هذه التي بناها لك نبوخذ نصَّر، أنتِ يا إلهة الخصب والحياة، يا إلهة الحبِّ والحرب، من بوابتك هذه ستمرُّ جحافل المنتصرين، وسيخرج من بوابتك هذه جيوش المنهزِمين، سيدخل المنتصرون في عزَّةٍ وفخارٍ، ويخرج المنهزمون في ذلَّةٍ وانكسار، عشتار النصر لا تعرف عظمته ومقداره إلا إذا قورن بهوانِ المنهزم، فذلةٌ وانكسار المنهزم يا عشتار هي التي تصنع عزَّة وفخار المنتصر.

عشتار.. لا تجعلي مني ذئبًا، عشتار.. لا ترسليني للعالم السُّفلي، عشتار.. لا تُحيلي نور قلبي إلى ظلام، عشتار.. أنا أريد حبًّا بلا غواية، سلامًا بلا حرب، نصرًا بلا هزيمة، فخارًا بلا انكسار، فهل ما أطلبه كثير؟!

يرتفع صوت مناجي عشتار وهو يجهش بالبكاء، أضواء المسرح كلُّها مطفأة، إلا من ضوء واحد مسلَّط على بطل المشهد المنكفئ على وجهه وسْط أرضية المسرح، وفي الخلفية صورة جِداريَّة زرقاء كبيرة تحاكي بوابة عشتار، لحظات من صوت البكاء والعويل المرتفع تَعْقبه إضاءة جميع أضواء المسرح، يقف بطلنا منتصِبًا ويستدير ليقابِل الجمهور الغفير، فيكافئه الحضور بتصفيق عالٍ مدوٍّ.

لم يكن هذا هو عرضه الأول، فهو ممثِّل المسرح الأشهر، ولم تكُن هذه ليلته الأولى من مسرحية عشتار، بل اليوم يُكمِل عامه الثالث من عروض هذه المسرحية الأسطورية التي جال بها معظم أهم خشبات المسرح في العالم، عرضها أمام كلِّ أنواع الجمهور؛ المختصين، والسَّاسة، والنُّقاد، وعامة الناس، وحصَدَ الجوائز والثَّناء وشهادات التقدير على أدائه في هذا العرض، أكثر مما قد حصل من كلِّ أنواع التقدير في عروضه الماضية التي قدَّمها على مدى ثلاثين سنة، لكنْ كلُّ هذا النجاح وتلك الخبرة لم يُسعفاه في تهدئة روْعِه في كلِّ عرض من عروض عشتار، خاصةً هذا المشهد الأخير من هذه المسرحية الذي يقف فيه وحيدًا على خشبة المسرح، وينهيه وهو مُولِيًا ظَهره للجمهور، متوسِّطًا أرضية المسرح جالسًا في وضعيةٍ أقرب للسجود، مواجهًا

لهذه الرسمة الجِداريَّة التي تحتلُّ كلَّ الخلفية والتي تحاكي بوابة عشتار. الأضواء مسلَّطة عليه وحده دون أيِّ شيء آخر، ويخاطب عشتار التي كانت حاضرةً في خياله التمثيلي فحسب، لكنه بروعة أدائه كان ينقل الأسطورة التي يتخيلها في ذهنه إلى مُخيلة كلِّ حاضر من الحضور.

ذلك التناقض والتداخل الذي تبثُّه أسطورة عشتار يدخل إلى قلبه ووجدانه كلَّ ليلة، فيُرعبه ويجعله مضطربًا، عادةً ما كان يصل بيته في نحو ساعة بعد انتهاء العرض، وغالبًا كان يصل وقلبه ما زال متسارع الضربات، وجسمه مرتعش، وعشتار ما زالت حاضرة في مخيِّلته، في أكثر من مرة فكَّر في أن يقدِّم اعتذارًا رسميًّا لمدير المسرح الذي يعمل فيه عن الاستمرار في عرض هذا العمل، لكنَّ شيئًا ما -لم يكُن يدرك ماهيته- يمنعه من ذلك، هل تأثَّر بالتناقض الذي توحيه الأسطورة في نواحي الحياة فأصبح يعيش تناقضًا حتى في علاقته مع هذا العرض؟ فهو يستنزف كلَّ طاقته، وعلى الرغم من ذلك يستلذُّ به، يُرعبه بما يحمل من معانٍ، لكنه متعلق به، يريد التخلي عن دوره في العرض في الوقت الذي أصبح فيه ملتصقًا بأسطورة عشتار، يَسخر من حضارةٍ تَخْلق آلهةً وتعبدها، ثم يسافر لكلِّ متاحف العالم، يتلمَّس آثار تلك الحضارة ويقف أمام ما خلَّفت من آثارٍ منبهِرًا.

يعود في كلِّ ليلة من ليالي العرض بعد منتصف الليل، فتكون زوجته قد سكنت لفراشها بعد يوم طويل قضته في رعاية الأبناء وتسيير شؤون الأسرة، لكنها أبدًا لم تنسَ -في أيِّ ليلة من هذه الليالي- أن تترك له وجبته مُعَدَّةً على طاولة الطعام، كان يحب طعامه هذا لأنه يعلم أن زوجته أعدَّته له خصيصًا.

جلس على طاولة الطعام، ابتسامةٌ تعلو وجهه، استحضر في مخيلته صورة زوجته وأبنائه، طاردًا عشتار من ذهنه، ضحكات أبنائه وابتسامات زوجته المتخيَّلة كانت تبعث الراحة في نفسه؛ راحة يطرد بها شيئًا من القلق الذي يخلِّفه حلول عشتار في مخيلته بعد العرض.

شيءٌ غريب لم يعهده من قبل، ظرفٌ قد أُسنِد أمامه على طرَف الصحن الذي اعتادت أن تضعه له زوجته على الطاولة، الطابع الذي عليه، الأختام البريديَّة، الخطُّ الذي كتبَ به العنوان، الذي يعرفه جيِّدًا، كلُّ شيء يُشِير إلى هُوِية المرسِل، تتجاذبه إرادتان: إرادة قويَّة داخله تدفعه نحو فتح الرسالة

وقراءتها، وشيء آخر يساوي تلك الإرادة في القوة، ولكنَّه يُعاكسها في الاتجاه، يمنعه من فتحها في هذا الوقت من الليل.

قرَّر أن يغمض عينيه ويترك القرار ليده الممسِكة بالظرف أن تقرِّر إما أن تفتحه ويقرأ الرسالة، أم أن تعيد الرسالة لمكانها ويفتحها في الصباح، يبدو أنَّ مشاعر الرغبة في أن يسمع صوت أبيه الذي يأتيه من خلال كلمات الرسالة المكتوبة، وحاجته أن يضمَّ بصدره حنانه المرسل في أوراق الرسالة، كانت أكبر من قوة التردُّد الذي تدعوه لتأجيل قراءتها.

يفتح الظرف بتأنٍّ وحرصٍ، فهو لا يريد أن يُفسد خطَّ أبيه الذي كتب به العنوان. يُخرِج الرسالة، يُمسِكها بيده، فيَسري من الورقة -عبر يدِه الـمُمسِكَة بها- إحساسٌ غريب يملأ صدره بهدوء وسكينة، يتلاشى كل ما تبقَّى من القلق والاضطراب، تركه عرض عشتار في قلبه، ينهض من على كرسيِّه، يذهب لصالة الجلوس الرئيسة في المنزل، الغرفة كانت مظلمة إلا من شعاع ضوء بسيط يأتي من الممرِّ القريب، يتجه نحو الجدار الذي علَّق عليه بروازًا كبيرًا لصورة والده بزيِّه التقليدي، حتى ظلام الغرفة لا يستطيع أن يحجب ابتسامة والده القادمة من الصورة من خلف ذلك الشارب المفتول بعزَّة وفخارٍ، ربما لم يكُن يستوضح الصورة بعينيه لخفوت الضوء، لكنَّ المشاعر القادمة من الرسالة حرَّكت ذاكرته ووجدانه فجعلت أباه حاضرًا في مخيِّلته، كأنَّه واقف أمامه، يمسك الرسالة بكلتا يديه يجلس على ركبتيه في وسط الغرفة، يرفع الرسالة أمامه ويجعلها تتلقَّى وحدها دون أيِّ شيء آخر في المكان، شعاع الضوء المتسلل إلى الغرفة المظلمة.

"ابني العزيز، رسائلك التي تصلنا، وهداياك التي تغمرنا بها، هي من بعض رحمات ربِّنا التي يُنعِم بها علينا، ما زلتُ أقرأ بسعادة وفخرٍ كلَّ الإشادات التي تُكتَب في الصحف عن أدائك في مسرحية عشتار، وأختك لا تتوقَّف أن تعرض عليَّ وعلى والدتك بما يَذكُره الناس عن هذا الأداء المبدع في وسائل التواصل الاجتماعي.

ابني العزيز، ربَّما عندما تصلك رسالتي هذه، تكون يدُ الأعداء الغاشمة قد دمَّرت ما بقِيَ من أشجار الزيتون المعمِّرة في حقلنا، تلك الأشجار التي سُقِيَت بعرَق الأجداد، ورُوِيَت بدماء الشهداء منذ بعيد الزمن، تلك الزَّيتونات

التي كانت أغصانها بأوراقها الفضيَّة رمزًا للأمن والسلام، أصبحت اليوم دليلًا على الحرب والدَّمار، وهكذا يا بنيَّ أصبحت أشجار الزيتون هذه كعشتار، رمزًا للحبِّ والحرب في آنٍ واحد".

زيتونة البيوباب

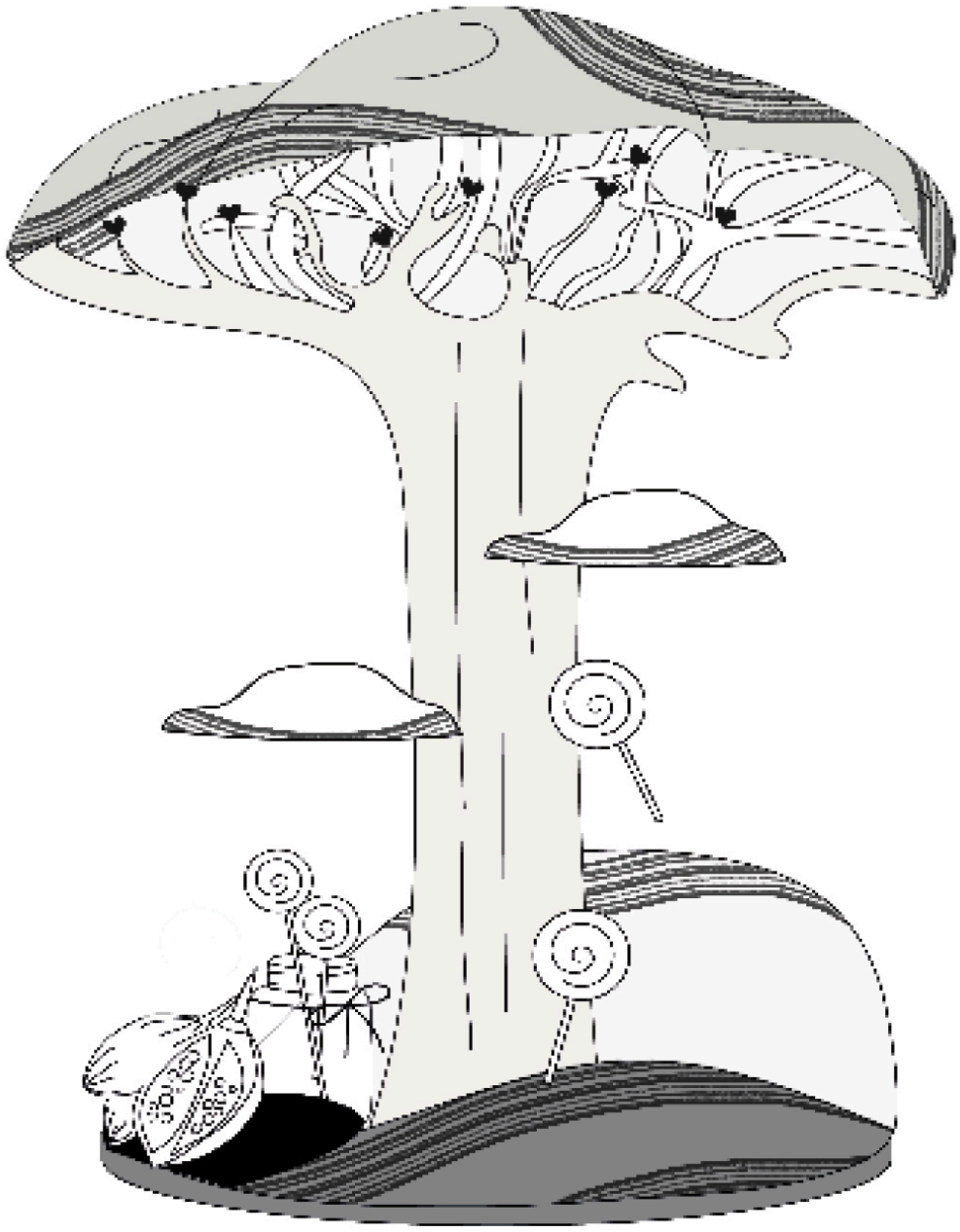

صارحْتهم بالحبِّ؟ لا

أنا ما كاتمتهم أبدًا ولا بُحْت

فالحبُّ يفسده البَواح

وما أفلحت لو بالحبِّ أفصحت

لكنَّهم علموا؟ أجَل علموا

مما أبحت لهم وألمحت

إيهاب البشبيشي

"عثمان" إيَّاك أن تقضي حاجتك عند الشجرة، إيَّاك إيَّاك أن تفعل ذلك، وإلا سيغضب عليك الله، ويغضب عليك أجدادُك الصالحون.

بلغتُ من العمر مبلغ الرجال وما زالت والدتي تلاحقني بذات النداء، كلما خرجتُ من منزلنا متَّجِهًا نحو الأحراش التي أمامنا، وهو بالطبع اتجاه جبري، بمعنى آخر: أمي كانت تودِّعني بهذا النداء كلَّما خرجت من المنزل، حتى ولو تكرَّر دخولي وخروجي في اليوم أكثر من مرة.

كلُّ الحيوانات تتغوَّط عند الشجرة، والطيور تُهديك خيراتها إذا ما جلست في ظلِّ الشجرة! كلُّ هذا لا يهمُّ، المهم ألا يقضي عثمان حاجته عند الشجرة. حقيقة قضاء الحاجة عند أشجار البيوباب ليس محرَّمًا على عثمان فقط، هو محرَّم على كلِّ صنف البشر، ولا تظنُّون أنَّ هذه من الخرافات المرتبطة بالثقافة الدينيَّة عند المسلمين في قريتنا النائية هذه في السنغال، أبدًا.. فحتَّى صديقي ماريو الذي أظنُّ أنَّه مسيحي، أجل أظن، فنحن أطفال القرى لا نهتمُّ كثيرًا لِدين أقراننا، لكنِّي أظنُّ أيضًا أنِّي رأيت والدَيْه يرتادان الكنيسة الصغيرة المجاورة للمسجد في قريتنا، عمومًا.. حتى ماريو هذا تودِّعه أمه بذات النداء، ولا شكَّ عندي أنَّ والده حمله كما حملني أبي بعد ولادتنا مباشرة لجذع شجرة من أشجار البيوباب، وسقانا والدانا من مائها المخزون في جذوعها، بل إنَّني أذكر مرَّة أنَّني خرجت من المنزل ومباشَرة صادفت ماريو، وكانت أمي تودِّعني بذات النداء: "عثمان، إيَّاك أن تقضي حاجتك عند الشجرة".

فأدهشني بأنَّ ماريو يردُّ قائلًا: "أعدكِ يا أمي لن أفعل"، فنظرتُ له قائلًا: "ماريو.. هذه أمي، والتَّحذير لي أنا".

فنظر لي باسمًا، وقال: "إذًا، في المرَّة القادمة عندما تحذِّرني أمي من التغوُّط عند الشجرة، أَجِبْها أنت، وهكذا نكون متساويَيْن".

بالطبع أنا أعلم لماذا تحذِّرني أمي من قضاء حاجتي عند أشجار البيوباب، أو لأَقُل: أنا أعلم لماذا تحذر الأمهات أبنائهنَّ من قضاء حاجتهم عند أشجار البيوباب، هي من تلك الثقافات التي لا تدرك كيف زرعت في ذهنك؟ أو كيف وصلت إليك؟ لكنَّك تعرفها بكلِّ تفاصيلها، ربما تكون أمي ذكَرَتْها لي في صغري، ربما سمِعْتها في أحاديث الرجال عندما يجتمعون حول النار في الشتاء، أو ربما تَحدَّثْنا عن الموضوع نحن الأطفال، فتكوَّنت عندنا معلومة كاملة من الأحاديث المتقطِّعة لكلِّ واحد منا.

أذكر مرَّةً، جاء رجل ثمِلٌ من قريتنا اعتاد أن يفرط في شرب مشروب كحُليٍّ محليٍّ، يُصنع من ثمار شجرة البيوباب، وتبوَّل عند جذع شجرة ضخمة منها، فاجتمع عليه رجال القرية وانهالوا عليه ضربًا حتى كادوا أن يقتلوه، وتركوه بدمائه على الأرض دون أن يهتمَّ لأمره أحدٌ، حقيقةً هذه الحادثة هي التي منعتني حتى من مجرد التفكير في أن أقوم بأي شيء قد يسيء لهذه الشجرة المباركة أكثر من نداء أمي.

الشيخ بشير، كما نحبُّ أن نناديه، هو شاب في منتصف الثلاثين من عمره، من أبناء قريتنا، لكنه استطاع أن يذهب للأزهر في مصر وتعلَّم هناك، وعاد ليدرِّسنا القرآن وبعض الأحكام الفقهية، الشيخ بشير هذا أفنى صحَّته وهو يحذِّرنا من تصديق كلِّ تلك الخرافات المنسوجة حول شجرة البيوباب، أذكُر كيف كانت تجحظ عيناه وهو يصرخ قائلًا: "أيُّ مجنون يصدِّق أن أرواح الأجداد محفوظة في جذوع هذه الأشجار؟! الروح من أَمْر ربي، فلا يجوز لمسلمٍ أن يعتقد شيئًا غير هذا"، حقيقةً كنت مدركًا -ودون حاجة الشيخ بشير لإجهاد أحباله الصوتيَّة، ولا حاجته لاستخدام الدلائل الشرعيَّة- أنَّه لا أرواح أجداد ولا غير الأجداد توجد في جذوع تلك الأشجار، لكن ليعذرني الشيخ بشير؛ فدماء ذلك الرجل السكران وجسده المتورِّم بعد هجوم رجال القرية عليه، ونداءات أمي، أكبر أثرًا في مشاعري، من صرخاته ومن جحوظ عينيه، بل أنا على يقينٍ بأنَّ الشيخ بشير ذاته لن يجرؤ على فِعل ما يهين تلك الشجرة، حتى ولو غلَّف الأمر بتفسيرات منطقيَّة، مثل: "نعم، لن نقضي حاجتنا عندها لأنَّها

مجالس الناس، والمكان الذي نجتمع في ظلِّه للعلم والدراسة، بل في بعض القرى يستخدمون ذراها كمساجد"، أعلم بأنَّها حجَّة منطقيَّة مقنِعة، ولكن أظنُّ أنَّ الشيخ بشير وأمثاله استخدموا هذه التعليلات المنطقيَّة ليبرِّروا مُسايرة الثقافة التي زُرعت في أذهانهم منذ الصغر من خلال نداءات أمهاتهم التي تحذِّرهم من قضاء الحاجة عند هذه الشجرة، أو ربَّما -من يدري- لأنَّهم شهدوا تعذيب رجل سكران قضى حاجته عند الشجرة.

أشجار البيوباب تعني لنا كلَّ شيء، فهي مخزون الماء الإستراتيجي في فصل الجفاف، وهي مصدر غذاء؛ ففاكهتها المسمَّاة بخبز القرود -والذي يُصنع منه عصير خبز القرود- غذاء وشراب لا يَستغني عنه أهل القرى النائية، وأغصانها المتفرِّعة بشكل فريدٍ توفِّر ظلًّا لمجالس الكتاتيب الصغيرة، بل تجويف الجذوع الخاص بأشجار البيوباب كثيرًا ما يستخدمه الإنسان كما الحيوان كمأوى، حتى لحائها تُصنع منه شِباك صيد الأسماك، فكيف لشجرةٍ تقدِّم لنا كلَّ هذا لا تُنسَج حولها كلُّ تلك الأساطير؟

قريتنا ليست قرية سياحيَّة، ولكنَّنا لا نَعْدم تطفُّل بعض السائحين من فترةٍ لأخرى، نحن الأطفال كنَّا نحبُّ هذه الزيارات، فهي دائمًا مرتبطة عندنا بالحلوى التي يقدِّمها لنا أولئك السيَّاح، كنت أستلذُّ بطعم هذه الحلوى جدًّا، وأشيع سِرًّا -لأوَّل مرَّة- أنِّي كنت أحبُّ تلك الحلوى أكثر من خبز القرود، كنا نغضب جدًّا إذا أراد أحد السيَّاح أن يتقرب لنا ببعض المال، ليس من دافع الكرامة أو عزَّة النفس، فماذا عسانا أن نفعل بهذا المال ونحن نعيش في قرية كقريتنا؟ كنَّا نريد الحلوى؛ فهذه كانت عندنا أفضل من كلِّ أموال الدنيا، وعلى قدر حبِّ الأطفال لتطفُّلات السيَّاح لقريتنا، يأتي كُرْه الكبار لهم، لم أُزعج نفسي أن أستوضح الأسباب التي تجعلهم يكرهون زياراتهم، التفسير الذي كان دائرًا بيننا، خاصة ونحن في سنِّ المراهقة، هو أنَّ الكبار يغارون منَّا لأنَّ السيَّاح يخصُّوننا نحن دون الكبار بتلك الحلوى، في واحدةٍ من هذه الزيارات أخبَرَنا سائح ألماني -عن طريق المترجم المصاحب له- أنَّ أشجار البيوباب هي أقدم أشجار الأرض، وأنَّه يُعتقد أنَّ عمرها يزيد على خمسة آلاف سنة.

طبعًا لم نتوانَ أنْ ننقل هذه المعلومة للشيخ إدريس، وهو المنافِس الأوَّل

للشيخ بشير على المكانة الدينيَّة في القرية، أو دَعْني أقول: إنَّ الشيخ بشير هو المنافِس الوحيد للشيخ إدريس على المكانة الدينيَّة، طبعًا هناك فروق كثيرة بينهما؛ فالشيخ بشير شابٌّ يافعٌ في مقتبَل العمر، في حين أنَّ الشيخ إدريس كهْلٌ ناهَزَ الثمانين، بشير تلقَّى العلوم الدينية من جهة علميَّة، في حين أنَّ الشيخ إدريس رجل مبارَك وحسب، وإنْ كان لقب "رجل مبارك" الذي حصل عليه الشيخ إدريس هو مقامٌ أرفع عند أهل القرية من أيِّ مقامٍ قد يكون بلَغَه الشيخ بشير بعِلْمه. عمومًا، ذهبنا للشيخ إدريس لنخبره بما أفصح به ذلك الرجل الألماني، واختيارنا للشيخ إدريس لنخصَّه بهذه المعلومة دون الشيخ بشير عائد لكونه رجلًا مباركًا، فما إن سمعها حتى اعتدلَ في جِلسته، ووضع أصابعه بين شعر لحيته، وأردف برأسه، ثم قال بحِرَفيَّةٍ بالِغة: "كم ذكرتُ لكم مرارًا من قبل ولم تصدِّقوني، بأنَّ حمامة سيدنا نوح لم تلتقِط أوراق شجرة الزيتون، إنَّما التقطت أوراقًا من البيوباب!".

زيتونة الحياة

RIP

إنَّ الحياةَ قصيدةٌ، أعمارنا أبياتها،

والموتُ فيها القافيَهْ

متِّع لِحاظَك في النجومِ وحُسنِها

فلسوف تمضي والكواكبُ باقية

إيليا أبو ماضي

متلازمة الموتِ والحياة كان لها دائًما وَقْعُها الخاص عندي، فأنا وُلدت وعشتُ حياتي كلَّها على الجبل، ستة أشهر من الشتاء القارس، نصف هذه الأشهر يكون كلُّ شيء متوشِّحًا اللون الأبيض، وكأن البياض هذا هو الكفن الذي يُغطَّى به الميت، الحياة تتوقَّف، الأشجار تصبح كأنها ميِّتة، النباتات كلُّها تموت، حتى ماشِيتنا تحتاج إلى رعاية خاصة، وعلى الرغم من ذلك كنا نفقد كثيرًا من صغارها، أمي كانت تربي النحل، فعسلُه بالنسبة لنا جزء من حياتنا، والشتاء بالنسبة لأمِّي ومناحلها كان رمزًا للموت.

حتى جدَّتي كانت تشتكي من الشتاء، ففيه مَفاصِلها كانت تصرخ من ألمِ الرُّوماتيزم أكثر من بقيَّة فصول العام، حتى إنَّها كانت لا تقوى على الحركة في أيام البرد القارس. نحن الأطفال، كنا نعدُّ الشتاء رمزًا لتوقُّف الحياة؛ فالمدرسة لا تكون إلا في فصل الشتاء، والدراسة بالنسبة للأطفال هي الموت، فالواجبات المدرسية والدراسة والامتحانات كلُّها قاتلة للذات، أوَليس الموت هو هادم اللذات؟!

أما الرَّبيع والصيف فهما شيئان آخران، ففيهما يختفي اللون الأبيض، ويعود للأشجار والنباتات والأرض لونها الأخضر، وتبدأ الحياة، أُولى علاماتها الإجازة الصيفية، فنبدأ في الاستمتاع بالملذَّات، ومن أمتعها -بالنسبة لي- الخروج بقطيع الماشية لرَعْيها في الجبال والسهول، كان الرَّعي يعطيني فرصةً للاختلاء بنفسي، والاستمتاع بأحلام اليقظة، وطبعًا يعطيني فرصة للتخلُّص من إزعاج إخوتي الصغار، كنت حقًّا أستمتع بهذه المهمَّة.

في الصيف كان يعود لجدَّتي قدرٌ كبيرٌ من نشاطها، فتُساهِم مع والدتي في طبخ الطعام، وحتَّى الطعام كانت تعود له الحياة في الصيف، فالأطباق التي تُعَدُّ في هذه المدَّة من العام كثيرة ومتنوِّعة، وتستطعم فيها النَّضارة. الماشية

تتكاثر بشكل أكبر، وتدرُّ حليبًا أكثر، فيتوفَّر في المنزل أنواع من الجبن والقِشدة الطازجة، ومناحِل والدتي تجودُ بالعسل، وساعات النهار الطويلة تعطينا فرصة أكبر كي نلتقي بأقراننا ونلعب أكثر وننطلق لاعبين راكضين تارة، متسلِّقين صخور الجبال، وتارةً بين السهول نسابِق جداول الماء.

ثم يأتي الخريف الذي لا يدوم إلا لأسابيع قليلة، فيكون بمثابة عملية تجهيز الميت قبل دسِّه في التراب، يتسارع الجميع للتأكد من أنَّه يملك مخزونًا جيِّدًا من الطعام يكفيه أشهُر الشِّتاء الطويلة، مربِّي الحيوانات يجهِّز لاستقبالها، مناحل أمِّي تُنقَل في مكان مغطًّى لِتأمَنَ الثلوج، وتقليل أعداد الضحايا من النَّحل خلال ليالي الشتاء الباردة، حتى جدَّتي تبدأ في إعداد جواربها الصوفيَّة الغليظة، كي تضمن قدرًا من الدِّفء لأقدامها الضعيفة، والدي لا يتوقَّف عن تأمُّل قطيعه من الماشية، وكأنه يُلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة، ونستعد نحن لبَدء عام جديد من الدراسة هادمة اللذات.

هكذا كانت للحياة والموت علاقة وثيقة معي، فدائمًا كان يشغلني موضوع الحياة التي تنتهي بالموت، والحياة التي تبدأ بعد الموت، لذا عندما قرَّرت أن أذهب للجامعة قرَّرت أن أدرس الفلسفة، كنت آمَل أن أجد إجابةً واضحة لهذه المتلازمة العجيبة، وإلى اليوم ما زلتُ أبحث عن هذه الإجابة، أجول العالم أبحث عن مفهوم الموت والحياة عند الشعوب المختلفة.

ما يُدهِشني حقًّا أنَّه حتى الحشرات البسيطة تعيش داخل متلازمة الموت والحياة. ذكور النحل تتنافس فيما بينها كي يصل الأقوى للملكة فيُلقِّحها، ثم يموت، يجتهد ليبدأ دائرة جديدة للحياة، في الوقت الذي تنتهي فيه حياته! ذكور العناكب تبحث عن الأنثى من أجل التزاوج، وهي مدرِكة بفطرتها أنَّها ستُفتَرَس وتنتهي حياتها، أيُّ شيء عجيب هذا الذي يقيِّدنا داخل متلازمة الموت الحياة؟!

الفراعنة بنَوْا حضارةً كاملة قائمة على فكرة الحياة والموت، ليس في معابدهم فقط، بل حتى في التعامل مع ظواهر الطبيعة، فعروس النيل تلك الفتاة التي في عمر الزهور، تُختار لأنها أجمل الفتيات، تدفع في قاع النيل، آملين أن تتقبَّل آلهة الماء قربانهم هذا، فيفيض النيل فيمنح شُطآنه الطمي الذي يعطي للأرض الحياة من جديد. الأزتك يُهدون الآلهة قرابين بشريَّة كي

ترضى عنهم، فينزعون قلب القربان البشري ويشوُونه بالنار، وهو ما زال ينبض، فهذا ما يرضي الآلهة، وهكذا تنتهي حياة رغبةً في أن تستمر الحياة.

وها أنا اليوم أقف في ولاية "أندرا براديش" في الهند، وعند شجرة "ثيماما ماريمانو"، تلك الشَّجرة التي تحتلُّ خمسة أفدِنة، ومحيط جذعها يبلغ ٨٤٦ مترًا، وعمرها يُقدَّر بـ٥٥٠ عامًا؛ شجرة من فصيلة "التين البنغالي"، ذلك النوع من الشجر الذي يبدأ حياته عالقًا على شجرة أخرى، فيغرس جذوره في جذع الشجرة التي يَعْلَق بها، فيتسلَّقها حتى يبلغ قمَّتها، فيحجب الشمس عن الشجرة التي منحته فرصة الحياة، فيقتلها ويبدأ هو حياته، أما شجرة "ثيماما" فعلاقتها بالحياة والموت أكثر تعقيدًا.

"ثيماما" تلك المرأة التي أحبَّت زوجها، فعاهدَتْه بأنَّها لن تعيش من بعده أبدًا، فعندما مات قيَّدت نفسها بجذعِ شجرة، وأشعلت في نفسها النيران، فتحوَّلت إلى رماد، يُقال في الأسطورة: إنَّه من هذا الرماد نبتت هذه الشَّجرة، فأصبحت شجرةً مباركةً، يحجُّ إليها آلاف الهندوس والبوذيِّين كلَّ عام طلبًا للاستشفاء أو الإنجاب، وهكذا استحال موت "ثيماما" إلى حياة.

أقِفُ أمام الشَّجرة لساعات طويلة، حيث يأتي الناس ويذهبون، يَتْلون صلواتهم، يقدِّمون طلباتهم يعودون بآمالهم، أشعر بالجوع، أفتح الحقيبة التي كنتُ أحملها على ظهري كي أستخرج شيئًا آكله، يشرد ذهني بعيدًا.....

"طفل يركض لاهثًا ضاحكًا، نجري خلفه نحن الأطفال لاهثين ضاحكين، كنا مجموعة من خمسة أصدقاء نعدو خلف سادسنا، لماذا يركض، ولماذا نركض خلفه؟! لا هو يعلم ولا نحن نعلم، لم تكن هناك أسباب تدفعنا للعب والضحك، فنحن نلعب ونلهو من أجل اللعب واللهو، يركض بسرعة فتبتعد المسافة بيننا وبينه، تعترضه شجرة زيتون كبيرة، يتسلقها بخفة ومهارة، كنا ما زلنا راكضين لم نبلغ الشجرة بعدُ، نراه يرتفع عليها، يخونه أحد أغصانها فيهوي على الأرض، ندركه وقد فارق الحياة، يدفنه أهله تحت شجرة الزيتون حيث سقط.

وكما كنا لا ندرك لماذا كنا نركض خلفه، ولا يدرك هو لماذا يعدو أمامنا لاهثًا ضاحكًا، فنحن كذلك لا ندرك لماذا تحوَّل قبره وشجرة الزيتون التي تظلله لمزارٍ، يأتي له الناس من بعيد، يتركون عنده الهِبات ويطلبون الرحمات،

وحتى بعض من ركضوا خلفه جاهلين السبب".

يعود لي إدراكي فأكمل البحث في حقيبتي عن شيء آكله.

زيتونة الوداع

أين اختفت في أيِّ أفقٍ سامٍ؟
أين اختفت عني وعن تهيامي؟
عبثًا أناديها وهل ضيَّعتها
في اللَّيل أم في زحمة الأيَّامِ؟
أم في رحاب الجوِّ ضاعت؟ لا: فكَم
بثَّيتُ أنسام الأصيل غرامي
ووقفت أسأله وقلبي في يدي
يرنو إلى شفق الغروب الدامي
وأجابني صمت الأصيل وكلَّما
أقنعت وَجْدي زاد حرُّ ضرامي
* * *
وإذا ذكرت لقاءها ورحيقها
لاقيت في الذكرى خيال الجام
وظمئت حتَّى كدت أجرع غلَّتي
وأضجُّ في الآلام أين حِمامي
وغرقت في الأوهام أنشد سلوةً
ونسجت فردوسًا من الأوهامِ
* * *
وأفقت من وهمي أهيم وراءها
عبثًا وأحلم أنَّها قدَّامي
وأظنُّها خلفي فأرجع خطوةً
خلفي فتنشرها الظنون أمامي
وأكاد ألمسها فيبعد ظلُّها عنِّي
وتدني ظلَّها أحلامي
وأعود أنصت للسَّكينة والرُّبى
وحكاية الأشجار والأنسام

وأحسُّها في كلِّ شيء صائت

وأحسُّها في كلِّ حيٍّ نامٍ

في رقَّة الأزهار في همس الشَّذى

في تمتمات الجدول المترامي

عبد الله البردوني

لا أستطيع أن أقولَ تحديدًا: كم مِن الذكريات التي تجتاح ذهني هي أحداث حقيقيَّة! وكم منها مجرَّد خيالات صنعها عقلي ليسدَّ بها فراغ الغياب! أيًّا كان الوضع، فالذكريات لم تفارقني منذ أن رحلَتْ أمي.

أصبح كلُّ شيء في حياتي مرتبطًا بذكرياتي معها، بالطبع لا بدَّ أن أعيد القول: إنَّني لم أعُدْ أدرك كم من هذه الذكريات هو حقيقي! وكم منها هو مجرد خيالات صنَعها عقلي الباطن! ربما لأنَّني كنت أتمنَّى تحقيقها معها، ولأنَّني اجتررت تلك الذِّكريات الحقيقيَّة منها والمتخيَّلة مئات المرات في اليوم الواحد، لم أعُد أستطيع أن أفرِّق بينهما.

بل هذا التِّكرار لجميع تلك الذكريات صنع لها صُوَرًا عقليَّة تأتي مع كلِّ ذكرى منها، وهكذا أصبح للذكريات المتخيَّلة صورًا مرئية تقفز لعين عقلي الباطن كلما جاءت ذكرى منها، وهذا مما عقَّد أمر التفريق بين الحقيقة والخيال.

وماذا يهمُّني أن أفرِّق بين الحقيقة والخيال؟ فجميعها ذكريات لأمِّي، تأتي بها إلى ذهني فأعيش معها أجمل لحظات يومي، لم أكُن متوقِّفًا عن الحياة، أو أعيش حالة من الحزن القاتل، أبدًا.. كنت أعيش حياتي مستمتعًا بأدقِّ تفاصيلها، لكن لم أكُن أستطيع أن ألغي ذكراها من الحضور، كانت تشاركني نجاحاتي، وتشاركني إخفاقاتي، كانت دائمًا هنا حاضرة، بل في أكثر مِن مرَّة سَمِعتها تُبدي رأيها، تشجعني، تؤنِّبني، أو تدعو لي كما اعتادت أن تفعل طوال حياتها.

ذكريات محدَّدة هي التي لا يساورني أيُّ شك بأنها حدثت حقيقةً، طبعًا لا أستطيع أن أنفي أنَّه حول الحقيقة صنعت خيالًا، فمرَّةً أخرى تداخلت الحقيقة بالخيال، لكنه خيال قائم على حقيقة، فلم يكُن خيالًا محضًا، وأظنُّ أنه كان

خيالًا مبنيًّا على معرفتي الدقيقة بأمي.

من هذه الذكريات الحقيقيَّة المغلَّفة بالخيال، أو لأَقُلْ: مِن تلك الذكريات المتخيَّلة المتجذِّرة في الحقيقة: هي ذكرى شجرة الزيتون، آهٍ.. ليت أعمار البشر الذين نحبُّهم مثل أعمار هذه الأشجار، تمتدُّ لمئات السنين، وهي ما زالت خضِرة نضِرة.

عمومًا لأعود لشجرة الزيتون تلك، عندما كنت طفلًا اصطحبني أبي وأمي وجميع إخوتي إلى مشتل زراعي، وهناك أخبرنا أبي أنَّ كلَّ واحد منَّا له الحق في أن يختار شجرة لتُزرَع في حديقة منزلنا الجديد، انطلقنا جميعًا بين أشجار المشتل، اختار كلُّ واحد من إخوتي شجرةً، وبعد مُضيِّ ساعة كاملة لم أكُن قد اتَّخذت قرارًا أيَّ شجرة أختار؟ نظر لي أبي بنظرة عتاب، وقال لي بأنه إذ لم أتَّخذ قرارًا خلال الدقائق العَشر القادمة فسوف يغادرون المشتل دون أن أحظى بشجرة خاصة بي لتُزرع في الحديقة.

كلمة أبي تلك زادت من حيرتي وألمي، لم يشعر أحد بهذه الحيرة وذلك الألم إلا أمي، فتحرَّكت تجاهي وابتسامةٌ عريضة تملأ وجهها، وأمسكت بيدي بعطف واضح، وأخذتني بين الأشجار، ووقفت عند غصن شجرة زيتون، وقالت بأنَّها كانت سوف تختار هذه الشجرة لنفسها، ولكنها لم تفعل لأنها أرادت أن أختارها أنا.

أخذتُ هذا الفرع الصغير من الزيتون وذهبت به لأبي، مُعلِنًا اختياري بكلِّ فخر، وعندما وصلنا لمنزلنا اندفعتُ قبل الجميع وأخذت غصني الصغير وحملته بذات العطف والحنان الذي شعرت به من خلال يد أمي عندما أمسكَتْ بيدي لتساعدني في الاختيار، وركضت مرَّةً أخرى لأمي وأمسكت بيدها، فنظرتْ نحوي ووجهها مضيء بذات الابتسامة التي أهدتني إياها في المشتل، ولم تحتَجْ أن تسألني عمَّا أنوي، إنما سارت بي إلى الحديقة، واختارت المكان الذي سوف نزرع فيه هذا الغصن، وزرعَتْه بيدها.

وفي يوم ما لا أذكر متى كان تحديدًا، سمعت الشجرة تُحَدثني... مجنونٌ ربما! حتى أنا كنت أظن في نفسي الجنون، لكنني كنت أسمعها حقيقةً، لم يكن الأمر وهمًا ولا جنونًا، لم يكن ذلك من الذكريات المتخيَّلة؛ فصوتُها كان يأتيني من جذعها، وأنفاسها الآتية من أوراقها تُعَطرني، وأشتاق لحنان ظلها،

لم يكن صوتها كلمات متقاطعة، إنما حديث متكامل، تشجعني كثيرًا، تعاتبني أحيانًا، وأحيانًا أخرى تشتكي قسوة الأرض وتغيُّر الأحوال.

صوتها كان جميلًا، يُمتعني كما الموسيقى، يزرع فيَّ شعورًا غريبًا، رغبةً في الحياة، أو ربما هو كان يزيل عن صدري كثيرًا من الهموم فيعطني أملًا بإمكانية الاستمرار في الحياة، لم أجرؤ يومًا أن أخبر أحدًا أن الشجرة تحدثني، أبقيت الأمر سرًّا خاصًّا بي، أخفيته حتى عن زوجتي وأولادي.

هل نجحت تمامًا في إخفاء وجود شيء ما يربطني بهذه الشجرة، شيء أكثر من كونها الشجرة التي اختارتها لي أمي، شيء أكثر من كونها الشجرة الوحيدة الباقية في حديقة منزلنا القديم؟... لا أعتقد، فزوجتي كانت تطلب مني أن أذهب للشجرة كلما هاجمتني همومُ الحياة، أولادي لم يكونوا يُزعجونني عندما كنت أقف أمام الشجرة لساعات، ساعات طويلة لا أكترث فيها لحرارة الشمس أو لبرودة قطرات المطر وهي تتساقط عليَّ، هل ذلك لأنهم كانوا يسمعون حديث الشجرة كذلك؟... لا أدري.

وفي يوم ما زلت أذكره جيدًا، أزعجني شيء في نبرة الزيتونة، صوتها جاءني هذه المرَّة وكأنه أنين... ذكَّرني بنبرة أمي وهي تودِّعني... لم أكن مستعدًّا بأي شكل من الأشكال أن أترك الشجرة ترحل، لا لن ترحل ولن أقبل أن أودِّعها، ستبقى هذه الزيتونة، ستُعمَّر، سوف تظل هكذا خضراء وتصبح أكبر شجرة زيتون، سيتحدثون عنها بعد آلاف السنين.

بحثت لها عن جميع العلاجات، جئت لها بأحسن المزارعين، لكنَّ أنينها لم يتوقف، نبرة الوداع لم تتغير... لا لن ترحل ولن أودِّعها... ستبقى ستُعمَّر، حتى صوتها وكلامها سوف يُخلَّد... أجل، صوتها سوف يُخلَّد، ولا بد أن يُخلَّد، وأوراقها ستعود خضراء.

لا أدري من أين جاءتني تلك الفكرة المجنونة، لكنها سيطرت عليَّ فجأة، بل ودفعتني للحركة، تركت الشجرة خلفي وركضت، وأنا الذي لم أتركها منذ أن بدأ أنينها إلا للنوم، ركضت بشكل هِستيري، ربما لو سألني أحد لحظتها إلى أين أركض؟ ما كنت أجبته، أو على الأقل كنت حِرت في الإجابة، لكنْ قدماي لم تكونا مترددتين في الركض، عقلي لم يكن يتوقف عن القلق، كان يريد أن يسابق الزمن، يريدني أن أصِل لمكان محدَّد وعمِل شيءٍ محدَّد قبل

فوات الأوان.

وصلت لمنزلي، أبحث من غرفة لغرفة، وجدت أصغر أبنائي جالسًا أمام جهاز الكمبيوتر، أمسكته من يده، طلبت منه أن يأتي معي.

- إلى أين يا أبي؟!!

- للبيت القديم، لشجرة الزيتون.

- لماذا؟!

- ليس هذا وقت أسئلة؛ فنحن يجب أن نذهب راكضين.

- راكضين؟! هل تقصد مسرعين؟

- لا، راكضين يا بُني، راكضين؛ فأنا تركت سيارتي هناك وجئت راكضًا.

- لا أفهم شيئًا.

- ستفهم كل شيء، أتمنى أن تفهم كل شيء، أنت الأمل الأخير لشجرة الزيتون، وأنا سأفعل كل شيء وأي شيء كي لا ترحل؛ فأنا لا أقوى على وداعها.

انطلقنا نركض، شعرت وكأني أركض أسرع في طريق العودة، شعور بالقوة والنضارة يجتاحني، ابني كان يسابقني، على الرغم من أنه لم يكن يدرك شيئًا مما يحدث. وصلنا عند الشجرة، ولدهشتي وجدت ابني يتوجه إليها... لم أعُد أسمع أنينها، صوتها توقف تمامًا، لكن ابني كان يقف أمامها وكأنه يسمع صوتها، كأنها تكلمه، لم أشأ أن أتدخل في حديثهما، زادت دهشتي وأنا أرى الشجرة تعود لها نضارتها، ذهب الصَّفار عن أوراقها، أنبتت أوراقًا خضراء جديدة...

عندها أدركت أنه لم يكن ذلك الأنين أنينها، بل كان أنيني أنا، ووداعي أنا.

الفهرس

زيتونـة نـوحٍ ٧
زيتونةُ جدَّتي ٢٥
زيتونة الغريب ٤٣
زيتونتي ٥٧
خشب الزَّيتون ٧١
زيتونة الذِّكريات ٨١
زيتونةُ عشتار ٩٥
زيتونة البيوباب ١٠٧
زيتونة الحياة ١١٧
زيتونة الوداع ١٢٧